رواية

نديم الوزه

شَهْوَة الآنسة صُوفي





نديم الوزه

شهوة الآنسة صوفي

نديم الوزه، شهوة الآنسة صوفي، رواية، طبعة أولى،

المحتوى

4

اليوم الأول

أفيق على مهل. أبتهج بضوء الصباح. أشعر بصفاء داخليّ. أفكّر أنّني بذهني النظيف، وروحي الشفّافة يمكن بدء الحياة من جديد. أميل بكتفي لأتمدّد على ظهري. أنهض، وأجلس على طرف السرير. أتلمّس قضيبي المنتصب بتلذّذ، تتلاحق أجساد جميلات عاريات إلى خيالي. أصغي إلى أصوات العصافير في حديقة البناية ، أنتعش بفوضويّتها.

أتذكّر أنّني شربت عدداً كبيراً مِن زجاجات البيرة ليلة البارحة. أذكر أنّني بعدما شربت الزجاجات التي كانت في البراد، نزلت أكثر مِن مرّة لشراء البيرة. أذكر أنّني نزلت مترنّحاً لأشتري آخر زجاجتين. كان القمر صاخباً في السماء، والشوارع خالية. وحده صاحب الدكان كان يدخّن أرجيلته. يراني ماشياً باتجاهه، يقف، ويرحب بي. أسأله عن أنواع البيرة لديه، يعدّد لي ما عنده. أفتح معه حديثاً حول صناعتها. لا يبدو مهتماً. أختار صنفاً سورياً جديداً، وأشرح له أنّ بيرته مُستخرَجة مِن الشعير الصافي، غير ممزوجة بالرز أو بالسكر، يتصنع الاهتمام بما أقول، ينشرح وجهه حين أدفع له ثمن

الزجاجتين. أفشل في تذكّر تفاصيل أكثر.

يتعكّر مزاجي خوفاً مِن شيء ما. يبدأ قضيبي بالارتخاء. أحسّ بحاجة ملحّة للتبوّل. أسرع إلى الحمام. أهدّئ حالي وأنا أتبوّل، فلا شيء يدعو للخوف، ولاسيما أنّني بدأت أُخرِج الأصدقاء المعارضين، وأعمالهم التي أنقدها، مِن رأسي. أغسل يديّ. أدعك المنشفة وأنا أنظر إلى وجهي في مرآة المغسلة، وأبتسم.

أمشي إلى المطبخ. أضع ركوة القهوة على الغاز. أشرب كأس ماء معدنية. أعود إلى غرفة نومي. أفتح اللابتوب. أنظر إلى أضواء الراوتر لأتأكّد مِن الاتصال بالإنترنت. أفتح الفيس بوك، أتفحّص الإشعارات، أطمئنّ إلى أنّني لم أزعج أحداً بفظاظة سكْري البارحة. بل لم أكتب أيّ شيء يزعج مؤيّديّ الحكومة، هذا إذا تبقى مَن يؤيدها بسبب عجزها عن رفع الأجور.

أنتبه هذه المرة إلى غليان الماء. أسرع بوضع البنّ في الركوة. أغليه ثلاث غلوات. أضع الركوة والكوب ومنفضة السجائر على صينية. وأرجع إلى اللابتوب.

أشعل سيجارة، أتصفّح منشورات الآخرين على الفيس بوك، أتجاهل الكتابات السياسية، أتجاهل المنشورات الشخصية واليومية. أشاهد صور النساء اللافتة، أشاهد صوراً عن لوحات، معظمها لا تميُّز

فيها. أقرأ بعض النصوص الأدبية، تغيظني كثرة الأمنيات الخائبة فيها: "ليتني أكون قلماً بين أصابعك ترسمين به شفتيك، سأغرف القمر مِن البحيرة، وأجعله قلادة على صدرك..."، أتذكّر شيئاً مشابهاً مِن الأغاني المَحْكِية:" سأغزل لكِ مِن خيوط الشمس إسوارة، يا ليت عندنا كوخ بعيد عن الناس..."، أتذكّر أمنيات الشعر العذري. أشعل سيجارة ثانية، أكرع ما تبقى مِن كوب القهوة، أفتح غوغل، أكتب في مستطيل البحث: "الأمنيات الخائبة في الشعر العذري" لا تفلح عملية البحث عما أريد. أكتب " الشعر العذري ليت" أفتح الرابط على بيت شعر لكثير عزة: " ألا ليتنا يا عزُّ كنّا لذي غنى بعيرينِ نرعى في الخلاءِ ونعزبُ". أستغرب كلمة "نعزب" أضعها في مستطيل البحث، لا يعطي معجم المعاني للكلمة سوى المعنى المتداول للعزوبية، ومعنى الوحدة والبعد. ربما يقول الشاعر: إنه لا يريد الزواج مِن عزّة. ولكنه يرغب برفقتها، ولو جاء موته بعد ذلك بسرعة، لأنّ مالك القطيع غنّي، ويأكل الكثير مِن البعير. أتأمل بما يفكّر به هذا العاشق البدوي، يبدو لي للوهلة الأولى معتوهاً، لولا أنّ الحقيقة تقول: لا حلّ لديه للهروب مِن سلطة القبيلة، مِن أعرافها وتقاليدها، سوى التفكير على هذا النحو. إنّه يفكّر أنّ الحيوانات تتمتع بحرية أكثر مِن البشر. وهذا صحيح. بل يؤكّد كُثَيِّر عزّة في هذا البيت على أنّ

الشعراء لم يكونوا مجانين في أيّ يوم مِن الأيام، إنما أحياناً يحتجّون على جنون السلطة الاجتماعية، ولا عقلانيتها، بأساليب لا عقلانية. غير أنّ ما يُضجر أنّ كتّاب قصيدة النثر يتقصدون مثل هذه الأمنيات المستحيلة، ربما للطرافة، وعلى الأغلب لأنّ حياتهم خاوية مما يُقال. على أيّة حال معظم ما يكتبونه ليس شعراً.

أشعر أنّ أمعائي تتحرّك. أسكب ما تبقى مِن القهوة. أضع الكوب وعلبة الدخان والمنفضة أمامي على السراميك، أنزل كيلوتي، وأجلس على مقعد المرحاض. تفرقع الغازات، تنزل قطعة طويلة متماسكة، أنظر إليها باستغراب، أتساءل إنْ هي تلتفّ على دودة كما اكتشفت مرة وأنا طفل؟. أسارع إلى نفي ذلك لأنّني أشرب الخمور، وغالباً ما يكون مشروبي هو العرق، وقرأت أكثر مِن مرة أنّ كحول المشروب تقتل الديدان. أتذكّر عملية التنظير الشرجي التي أجريتها مِن عدّة سنوات، أرجح أنّ حجم استدارة القطعة تماثل استدارة الأنبوب الذي أدخلته الدكتورة في أمعائي. تنزل قطعة ثانية أقل طولاً، ولكنها بنفس حجم الاستدارة. أشعر بارتياح، غير أنّ ثمة ضغطاً لم يزل في مصراني الغليظ من الجهة اليسرى. لا أشمّ رائحة من القطعتين، فلا أكبس زرّ الماء. أشعل سيجارة، أرتشف شيئاً مِن القهوة. أسحب ما أستطيع مِن الدخان، وأنفخه. أضع السيجارة في المنفضة. أكرع ما

تبقى مِن القهوة. أنحني. أشدّ ظهري. أحسّ بشيء مِن الارتخاء. تفرقع الغازات بكثرة. تتدافع القطع قصيرة، متتالية، أضغط على آخر قطعة. آخذ نفساً عميقاً. ألتفت إلى الوراء. أكبس زرّ المسند، يتدفّق الماء. أتشطف بنبريج الحنفية على يميني. أمسح الماء بين فخذيّ بمحرمتين ورقيتين. أغسل يديّ بالماء والصابون. أضع الركوة والكوب والمنفضة على غرانيت المجلى. أعود إلى الحمام. أحلق ذقني. أغسل وجهي. أفرشي أسناني.

أجلس أمام اللابتوب. أفتح البريد الالكتروني، أجده فارغاً، أغلقه. لا شيء جديد في الفيس بوك. لا أدري لماذا أتركه مفتوحاً؟ ربما للاستئناس الوهمي بالبشر المتواجدين عليه. أرتدي قميصي وسروالي. أضغط بقدمي على سطل القمامة، وأخرج الكيس. أغلقُ باب الشقّة، أهبطُ الدرج، أعدّ درجات الطابق الثالث، درجات الطابق الثاني، درجات الطابق الأول. أحسّ بنشوة خفيفة، وأنا أخرج مِن باب البناية. أستمتع بنسمات هذا الصباح الصيفيّ. نسمة، نسمتين، ثلاث.. أقف على بعدٍ يقيني ردّة فعل حشرات الحاوية وقططها، أرمي كيس الزبالة. أتمطّى بارتياح. وأتمشّى على مهل.

أعبر الطريق الواسع بين بنايات الحارة المتبقية. أمشي بمحاذاة رصيف الحديقة. أشعر أنّ جسدي يخفّ، وعمري يشبّ. أنظر إلى

فتاة تمشي على الطرف الآخر، تنظر إليّ، وتتلمّظ شفتيها. أعبرها، لم أجرّب التعرّف على الشابات الصغيرات، ولا سيما أنّني لا أملك ما ينبغي لإرضائهنّ سوى شهوتي المكتنزة. أنظر إلى امرأة ترمقني بحذر مِن خلف نظارتها السوداء، وهي تقود سيارتها الحمراء، أتذكّر امرأةً أوصلتني مرّة إلى غرفتي الفقيرة أيّام شبابي، لتزورني مخمورة بعد عدّة أيام.

أدخل دكان الخضار. أرى امرأة يبدو لي جسدها المنحني على سحارة التفاح مثيراً وأليفاً. أنتظر قليلاً حتى تنتهي. تلتفت إليّ، تلتقي عيوننا على شيء واضح وملّح اتفقنا عليه مسبقاً مع أنّنا لا نعرف بعضنا إلا الآن. تفسح لي. أقلّب بعض التفاح، أتركه. أخرج مِن الدكان. أتوقف أمام بابه.

تخرج حاملة عدّة أكياس. تنظر إليّ مبتسمة. أبتسم. أسألها بخجل وارتباك أن أساعدها. تناولني أكياس يدها اليمنى صامتةً مبتسمة . تمشي. أمشي وراءها. نمشي باتجاه معاكس للحديقة وحارتي.

ندخل في شارع أكثر اتساعاً، بين بنايات أكثر تباعداً بين أسوارها. تلتفت إليّ، وتبتسم. أبتسم، وأتبعها. نصعد الرصيف، ونتابع المشي. ننعطف إلى بناية صغيرة. نهبط الدرج . نقف أمام شقتها. تناولي الأكياس المتبقية. تفتح الباب. ندخل. أغلق الباب. تضع المفتاح

على طاولة جانبية. أضع الأكياس إلى جانبه. تنظر إليّ، وتبتسم. أنظر في عينيها، وأبتسم:

– إيه.

– إيه.

أمسكها مِن كتفيها. لا تمانع. أقرّبها مِن صدري بهدوء. تتقدّم إليّ بخطوة. أخطف قبلة مِن فمها. أحسّها تبادلني القبلة. أقبّلها. تقبّلني. أمسك شفتها السفلى بين شفتي، تضغطان عليها برقّة، تتنهّد. تمصانها. تزداد تنهداتها عمقاً. تخدش أنفاسها أنفي بروائح دخان ومخاط وعطور خمرية خفيفة. يلمس لسانها أسناني لمسات متتالية. أمسكه بين شفتي. أتذوّق لزوجته، بينما تسرح كفّاي على ظهرها. تخرج لسانها، وهي تميل برأسها إلى الخلف. أضع يدي على جانبي ثدييها. أقبلها في ملتقى عنقها وصدرها. تضع يديها على ظهري. تضغطه إلى صدرها. أحسّ بنبضها وأنفاسها وتعرّقها. أرفع يدي إلى شعرها. أكوّمه بين يديّ. أقبل جبينها. أقبّل خديها. أقبّل أذنيها. ألحس عنقها مِن أذنها إلى كتفها. ألحسه مِن اليمين. ألحسه مِن اليسار. ألحسه مِن الأمام. أفتح أزرار قميصها. أتأمّل ثدييها المرتفعين بلا حمالتين تحت البلوزة البيضاء الشفافة. تثيرني بقعتا العرق حول حلمتيها. أتلقفهما، أمصّ عرقهما. تخلع قميصها.

أعريها مِن بلوزتها. أمرّغ وجهي بعرق ثدييها وبطنها. ترفع رأسي إلى وجهها. تقبّلني على شفتيّ. أدخل لساني في فمها. تراقصه بلسانها. تمّصه. تضع رأسها على صدري. تنزل سروالها وكيلوتها إلى فوق ركبتيها. أساعدها بإنزال سروالي وكيلوتي. تمسك قضيبي. تمرّغه بفرجها. تحكّه ببظرها. تخدشه شعرات عانتها. تولجه في مقدّمة مهبلها. تشهق. أضغطه ببطء. ينزلق داخل رحمها. أحرّكه إلى الوراء، فيخرج. تتعرى مِن سروالها وكيلوتها وحذائها. أتعرى مِن قميصي وسروالي و كيلوتي وحذائي. تحضنني. تتعانق شفاهنا. يتراقص لسانانا. أقرّب قضيبي مِن فرجها. يضيع عن فتحة المهبل. تمسكه بأصابعها، أحسّ بأظافرها تجرحه. تدخله. أحرّكه إلى الوراء لأطمئن على استقراره داخل فرجها. أضغطه إلى الأمام. أدخل ذراعيّ تحت إبطيها، أمسكها مِن ظهرها، أضغط على صدرها. أتحسس بصدري ثدييها. تنحني بظهرها إلى الوراء. تقرّب كرسي الطاولة. تضع قدمها عليه. يخرج قضيبي. تدخله. أضغطه إلى الأمام. تضغطه إلى الوراء. أتنهّد. أضغطه إلى الأمام، تضغطه إلى الوراء. أضغط بحوضي كله على حوضها. أشعر بلذّة تدفّق المنيّ. أنحني على كتفها. تمدّ ذراعها على كتفي. تحرّك أصابعها على ظهري ببطء ونعومة. أمدّ قضيبي داخل مهبلها. تشهق. أسحبه

قليلاً. أدفعه، أسحبه. أدفعه، أسحبه. يخرج مرتخياً.

أنظر إليها مبتسماً. تغمزني وتضحك. تسألني:

– ما رأيك بحمّام؟

– إي، والله. صار لي ثلاثة أيام لم أتحمم.

– واضح. رائحتك عابقة مِن الدكان وحتى الآن. لكنها شهيّة.

أضحك. تضحك.

تمسكني مِن يدي. أتبعها داخل صالون طويل مزدحم بطقمي كنبايات: الرئيسي لونه بنّي، والجانبي فيروزي. تستوقفني كرتونة معلّقة على الحائط، يبدو مِن اصفرار لونها الأبيض أنها قديمة جداً. ما أدهشني القصيدة المكتوبة عليها بقلم أسود عريض، نستخدمه – نحن المدرسين – للكتابة على اللوح:"

(فرج ضاحك)

لا تفضَّ بكارةَ قلبي

فمازالَ جرحُ اغتصابي طريّاً

و يحتاجُ بحراً و شمساً و بعضَ الهواءِ

لأطردَ رائحةَ الموتِ من نَفَسي شهوتي

و احتمالَ عذابي بحبّي شبيهاً بمجرمِ حربٍ

يريدُ ارْتداءَ ثيابي

و حينَ أعودُ مساءً سأقرأُ شعراً يمازحُ فَرْجي

و يطردُ عنهُ مبالغتي في اكتئابي

ليضحكَ ينسى ويقوى على لغةٍ

من فضائحِ حبِّ الذكورِ

و بعضِ السبابِ

و أتركُ قلبي لِفَرْجي

و فَرْجي لقلبي

لنحيا معاً

في انطلاقِ الحياةِ

بغيرِ ذنوبٍ

و غيرِ احْتسابِ".

تقف إلى جانبي، وتسألني بغنج:

- هل أعجبتك القصيدة؟

أنظر إليها معجباً بها، وأجيبها ضاحكاً:

- أنا الشاعر.

تضحك، وتفاجئني بكلمة تنطقها بحسم وثقة:

- أعرف.

تشدني بقوّة مِن يدي، و تكمل بتهكّم ودود:

- هل تظنّ أنّ ما يحصل الآن كان سيحصل بهذه السهولة لو لم أكن أعرف مَن أنت؟

أتراخى وأضحك. أتقصّد أن أقول بلهجة مستفزّة:

- لكن أنا لا أعرفك.

تسحبني داخل الباب على يمين الصالون. نقف في ممرّ يفضي إلى غرفتين بينهما الحمام. تقبلني على شفتيّ. تنظر إليّ باهتمام، وتخاطبني بجديّة:

- اسمي صافية.

تأخذ نفساً، وتتابع:

- لكن اعتاد الجميع منذ دخولي إلى المدرسة على مناداتي صوفي بسبب إحدى معلماتي. أحببت الاسم، وبعد أن عرفت معناه. أحببت الفلسفة، ودرستها. وأدرّسها حالياً في ثانوية خاصة.

- رائع.

تبتسم ممتنة بحركة من رأسها، وتقول مستعجلة:

- دعنا الآن ندخل الحمام.

لا تملأ البانيو بالماء كما أتوقّع، ويحدث في الأفلام. تجلسني في طرفه. تبلل رأسي وترغيه بالشامبو. تنعشني برودة الماء ورائحة الشامبو الزعترية. أستمتع بتدليك أصابعها لشعري. تشطف رأسي. تضع الشامبو وترغيه مرّة ثانية. تبدو أصابعها أكثر ألفة ومودة. أضع يدي بين فخذي وأسترخي. تسألني بعد أن تنظف رأسي من الصابون:

– ما رأيك باستخدام الليفة ؟

أجيبها مستسلماً:

– افعلي ما تشائين

تضحك وهي تقول:

– سأفعل. صار لك وقت طويل بلا حمّام.

أضحك موافقاً.

تفرك جبيني ووجهي وخلف أذنّي ورقبتي. تزيل الصابون. تطلب مِنّي الوقوف. أقف مستنداً على حافة البانيو خوف الانزلاق. تمسكني مِن يَدِي، تفرك ظهري مِن كتفيّ حتى قدمي. تديرني إلى الأمام، تفرك صدري إلى أصابع قدمي مِن غير أن تمرّ على أعضائي. تشطفني بالماء. تنظر إليّ مبتسمة، أبتسم. تضع كمية مِن الشامبو على عانتي الطويلة وترغيها، تمرّر الصابون على

قضيبي وخصيتي، تمدّ أصابعها إلى الخلف حتى يلامس الصابون ما بين إليتي. تشطفني. تخرجني مِن البانيو. تقبلني. أبادلها القبلة. تمسك أصابعها بخصيتي. تداعبهما برقّة بينما تقبلني على عنقي. تقبلني على كتفي. أتوجّس من شيء:

– وإذا لم ينتصب؟.

تضحك وتضربني بظاهر كفها على كتفي:

– اتركني أجرّب.

تقرفص. تمسك قضيبي. تقبّله، تضعه في فمها، تراقصه بلسانها، تمصّه، أشعر بشيء مِن اللذّة، فيبدأ بالانتصاب، ترغي لعابها عليه، وتحلبه بيدها، فيزداد انتصابه، وتزداد تأوهاتي. تضع قدمها على حافة البانيو، وتضعه في فتحة فرجها فينزلق في مهبلها. أمسكها مِن خصرها. تميل قليلاً إلى الوراء. أدفعه، فينتصب كاملاً. أخرجه. أطلب مِنها أن تتكئ بيديها على البانيو، وتدير مؤخرتها إليّ. أنحني قليلاً إلى الوراء وأتركها تدخله في فتحة فرجها. أدفعه ببطء. أمسك ردفيها بكلتا يديّ. أسحبه وأدفعه في فرجها. أضع يديّ خلف ظهري. وأسرع في دفعه وسحبه مستمتعاً بارتجاج ردفيها وملامستهما لأعلى فخذي وحوضي. تزداد أنفاسها تسارعاً، وتنهداتها خشونة. أنحني على ظهرها، أمدّ يديّ إلى ثدييها، أداعب حلمتيها، بينما عانتي

تفرك مؤخرتها. أعاود مسك ردفيها بكلتا يديّ. أمدّ قضيبي داخل فرجها وأسحبه على مهل. تمدّ يدها إلى مؤخرتي، وتدفعها إلى الأمام كي أسارع في سحب قضيبي ودفعه. أستمتع بضربات عانتي على مؤخرتها. تأخذ تنهداتها بالتصاعد. وأنفاسي بالتسارع. أمسكها مِن خصرها لأتمكن مِن رؤية مؤخرتها كاملة. أحرّك حوضي بأسرع ما أستطيع إلى الخلف والأمام. تصرخ متأوّهةً، تشخر، تتأوّه، تصرخ. تعلو تنهداتي، أصرخ. أنحني على ظهرها، أتلّذذ بتدفّق منيّي داخل فرجها. أسحب قضيبي قليلاً، يخرج مِن فرجها مرتخياً.

أديرها إليّ. أنظر في عينيها الممتلئتين ماء وضوءاً. أقبلها على شفتيها. تقبلني على شفتيّ. أقبلها. تقبلني. أحضنها. تضع رأسها على كتفي. أقبلها على شعرها. وأهمس:

– أنا جائع.

تضحك. تُبعِد جسدها عنّي قليلاً، تمسك بخصري، وتسألني:

– ما رأيك أن تحمّمني أولاً؟

– بكلّ سرور.

تجلس في طرف البانيو. أبلل شعرها الأسود الخشن الكثيف المترامي على كتفيها، أرغي الشامبو، وأشطفه بالماء. تقول لي:

– أودّ أن تغسله مرة ثانية بلا شامبو. وتلمّه بالبكلة فوق رأسي.

- أين البكلة؟

- قرب علبة الصابون.

تساعدني في تجميع شعرها، وأخيراً أنجح في مسكه بالبكلة. أنظر إلى جسدها البرونزي كأني أراه لأول مرة، وأسألها:

- هل أستخدم الليفة؟

تضحك:

- لا، يكفي أن تضع الصابون في يدك، وترغيه على جسدي.

أرغي جبينها وخديها. أمرّر إصبعي على أنفها، أتعجب من استقامته بلا انحناء. أضع سبابتي على فمها، وأسألها ضاحكاً:

- هل تنفخين شفتيك؟

تنقضّ على إصبعي تعضه برقّة، وتضحك:

- لا هما عريضتان بالولادة.

أضحك. أرغي أذنيها، ما خلف أذنيها، وعنقها. أشطف وجهها ورأسها. تقف داخل البانيو متكئة على يدي، تدير لي ظهرها، وتسند يديها على الجدار. أتأمّل رشاقة جسدها وطراوته. أرغي كتفيها وظهرها. أستمتع بنعومة ردفيها. أمرّر يدي بينهما، وأرغي فرجها مداعباً شفرتيه، فتضحك. وتلتفت إليّ. أضحك. أضع صابوناً على يدي، وأرشّ صدرها وثدييها بالماء. أرغيهما، أرغي بطنها وعانتها.

تمنع يدي من مداعبة بظرها. أسألها بجدية:

– هل ألحسه؟

تمسك رأسي بين كفيها، تقبلني على شفتيّ، وتهمس متنهدة:

– غير يوم.

أرغي فخذيها وساقيها وقدميها. أشطفها. تخرج مِن البانيو. أقفز إليه. أرغي كتفي وبطني وما استطعت مِن ظهري. أضع قليلاً مِن الصابون على عانتي أرغيها. أرغي قضيبي وخصيتي وردفيّ. أنهي شطف جسمي. تعود بمنشفة تلفّ شعرها. ومنشفة حول صدرها إلى فخذيها. وبيدها منشفة. تنشّف رأسي وجسدي وتلفها حول بطني ورجليّ. تساعدني على الخروج مِن البانيو. وتقول لي:

– يمكنك أن تجلس إلى طاولة الطعام في الصالون إلى أن أنتهي مِن هنا.

أدعك قدميّ بمنشفة أمام باب الحمام. أدخل قدمي بشحاطة أنثوية رأيتها أمامي، فيبقى نصْفا كعبيّ في الهواء. أمشي إلى الصالون، أفتّش عن الطاولة، أجدها خلف طقم الكنبايات الفيروزي. أجلس باتجاه النافذة الزجاجية الكبيرة، المطلة على شجر الحديقة وزهورها. تلفت انتباهي عدّة أشجار تين، ودااليتا عنب. ألمح حبات تين ناضجة، أبحث عن باب الحديقة، لا أجده. أفكّر أن أسأل صوفي

عنه لولا أنّني أقاوم شهوتي وجوعي خشية أن أزعجها بشيء يحرجها. أقف، وأنظر إلى طرابيزات الصالون، فأرى على إحداها علبة دخان وقداحة ومنفضة فيها أعقاب سجائر ورمادها. أجلس في الكنبة المقابلة لها، وأشعل سيجارة. تأتي صوفي وقد ارتدت روباً أبيض شفافاً يُظهِر حلمتي ثدييها، وبطنَها المرتفع شيئاً طفيفاً عن كيلوتها الأحمر، ما أجمل طيات خصرها الرقيقة وردفيها الممتلئين على فخذيها. تناولني كيلوتاً نسائياً أسود. تقول وهي تضحك:

– جرّبه. هو كبير عليّ. سيكون أفضل مِن ارتداء كيلوتك المتسخ.

أبتسم. آخذه منها، أرتديه، أجده مريحاً، فأمدّ لها يدي بإشارة الإعجاب. ترفع المنشفة عن الأرض وتسألني:

– تفضّل البيض مسلوقاً أم مقلياً؟.

– المقلي أسرع، سيغمى عليّ مِن الجوع.

– بزبدة أم بزيت؟

– بزبدة طبعاً.

– طبعاً، مِن أجل أن يكبر كرشك أكثر.

– أريد لي بيضتين على الأقلّ.

تضحك، ولا تعلّق.

أطفئ السيجارة. أنظر إلى الكيلوت الذي أرتديه بامتعاض. صحيح

أنا معتاد على ارتداء الكيلوت لوحده في شقتي، إلا أنّني الآن لا أرتاح أن يكون نسائياً. أمشي إلى أمام باب الشقّة. فأرى باب المطبخ على اليمين، على مقربة مِن ثيابي الموضوعة بعناية على كرسي الطاولة الصغيرة. أقف على الباب، أتفرّج على صوفي كيف تغسل البندورة والخيار، وأسألها:

- هل ترغبين بمساعدة؟

تلتفت إليّ، تتفرّج عليّ فرحةً، وتجيبني بغنجها القريب مِن القلب:

- بعد الفطور، سأترك لك المطبخ.

وتضيف بسخريتها المحبّبة:

- يبدو كيلوتي لائقاً عليك، لكن للأسف ليس لديّ بمقاسه كيلوت آخر.

أتصنع الزعل وأقول:

- على أية حال جئت لأرتدي سروالي بسبب الشيئين معاً.

- ما هما؟

- سخريتك الفظيعة، ومِن أجل الجلي أيضاً.

تضحك، وتقول:

- على أية حال، أسرع بارتداء سروالك، وتعال لتقطف بعض النعنع مِن الحديقة.

– هل أرتدي قميصي؟

– لا داعٍ، فلن يراك أحد. ربما، فقط، الطيور والحشرات.

أرتدي سروالي. و أعود إلى صوفي. أنتبه إلى أنّ الباب الزجاجيّ الموجود في أقصى المطبخ في الطرف المقابل لبابه مِن داخل الشقة هو باب الحديقة. تعطيني مقصاً. وتقول:

– النعنع أمام مصطبة الباب.

أقف على المصطبة، وآخذ نفساً عميقاً، تهبّ بعض النسمات عابقة بروائح النباتات الممتدة أمامي: نبتة العطرة و الزعتر وإكليل الجبل والحبق والنعنع. أنظر إلى أشجار السرو المصطفة كجدار أخضر غامق على طول سور الحديقة، حاجبة أيّ شيء خلفها، لتشكل ذؤاباتها خط أفق بين السماء والأرض. بينما تتوزّع الأشجار المثمرة على عمق حوالي أربعين متراً وعرض أكثر مِن عشرين متراً. تجتاحني مِن جديد رغبة بالتجوّل بينها وقطْف الثمار. غير أنّي أؤجل إمكانية ذلك إلى وقت لاحق. أقصّ عدّة عروق مِن النعنع. أسارع إلى وضعها مع المقص على غرانيت المجلى أمام صوفي، وأسألها:

– ماذا يوجد بعد سور الحديقة؟

– جدار استنادي ينحدر حتى الطريق الذاهب إلى بساتين الزيتون

وبيارات البرتقال.

- جميل.

- لم أسألك: هل تحبّ قلي البيض مع الثوم والنعنع؟.

- إذا كنت سأقشر الثوم، لا أحبّ.

تضحك، وتعطيني المقص ثانية، وتخبرني:

- هناك ثوم مقشّر في البراد. فقط، قصّ مزيداً من النعنع ليكفي السلطة والبيض.

أضع النعنع الإضافي والمِقَص على المجلى. أدخل يدي تحت فستان صوفي، أداعب مؤخرتها. تلتفت إليّ تقبّلني على خدّي. تتناول وعاءَ قشّ أمامها، وتضعه فوق رأسي ضاحكةً، وتقرّب شفتيها من أذني حتى تلامساها وتهمس:

- اذهب إلى الحديقة واقطفْ لنا ما تستطيع مِن حبات التين، لأسارع في إنهاء عمل الفطور، أم لم تعد جائعاً؟

تنهي كلامها، و هي تلحس أذني، وتضغط عليها بأسنانها مدغدغةً. أسحب يدي مِن تحت فستانها ببطء، وأُنزِل صحن القش مِن فوق رأسي. أنظر إليها وأبتسم، فتدفعني باتجاه باب الحديقة ضاحكة.

أقهقه متدافعاً، وأخرج مِن المطبخ.

أسألها مِن على المصطبة:

- هل أدخل إلى الحديقة بالشحاطة؟

- لا، بالقرب منك على أحد جانبي المصطبة مجموعة مِن الأحذية، اختَرْ واحداً منها.

- لِمَن كلّ هذه الأحذية؟

- كانت لأبي وأخي.

أرتدي بوطاً رياضياً يبدو مِن شكله مناسباً لقياس قدمي. أتنقّل بين أشجار التين متنوعة الأحجام والألوان والطعوم. آكل أكثر مما أضع في الطبق. أنظر إلى عناقيد العنب، معظم حباتها لم تنضج كفاية، أتذوّق حبّة سوداء، لم تزل حامضة. أقترب مِن شجرة أجاص، تبدو كثيفة الأوراق، لكن لا أرى أية ثمرة، أنظر إلى أعلاها أشاهد عدّة ثمرات خضراء يلوح عليها لون برتقالي خفيف، أتركها لعلمي بأنّ الأجاص لا يؤكَل طازجاً وإنما يحتاج إلى تخمير بالتبن أو بأغصان مورقة يابسة أو حتى بالجرائد. ألمح أيكة آس لم يحنْ موسمُها أيضاً. وخلفها قريباً مِن سياج السرو تتوزع أشجار مشمش ودراق وخوخ بأنواعه قد انتهت مواسمها. أصل إلى حبات التين التي رأيتها مِن الصالون، أقطفها، وأضعها في الطبق. أسمع نقراً على زجاج النافذة، ألتفت، فأرى صوفي تشير إليّ بالدخول.

أضع طبق التين على طاولة الطعام، وأجلس قبالتها. نتبادل

الابتسامات، والنظرات الودودة. تناولني رغيفين صغيرين مِن الخبز الأسمر. أضعهما على يميني، وأمدّ يدي لأتناول منها ملعقة مِن أجل السلَطة. ألتقطها مِن أصابعها على عجل، تفلت مِن يَدِي، تصطدم بالطاولة، وتقع على الأرض، أنحني. وأرفعها بسرعة. لا تُبدي صوفي أيّة ردّة فعل تجاه ذلك، إنما تسألني:

– هل أبدلها لك؟

– لا داعٍ، فالرخام لامع هنا، ولسنا في مطعم مزدحم.

– بعض الجراثيم لا تضر.

– صحيح.

تنزع محرمة ورقية مِن علبة إلى يمنيها، تناولني إياها، وتشير إليّ بمباشرة الأكل. أمسح الملعقة بالمحرمة، وأغرف مِلْأها مِن السلَطة. تبتسم، وتقطع لقمة مِن الرغيف أمامها، وتغرف بها ما تستطيع مِن صحن البيض. يبدو كلّ شيء مع صوفي تلقائياً وبلا تكلّف. ومع ذلك ربما تكون هذه المرّة مِن المرّات القليلة التي آكل فيها بهدوء وصمت. وربما هذا ما يجعل بعض الخواطر تمرّ بتفكيري مرحة، وبلا عناء، فإضافة إلى شغف صوفي بالجنس هي مُحبّة للطعام، ومتفنّنة في طبخه. أتقاسم وإياها طبقَي البيض والسلَطة. لكنها تناولني رغيفاً ثالثاً لألتهم وحدي صحْنَي الجبْنة والعسل، بينما تُقرّب

إليها طبق التين. وتلتهم منه عدّة حبات مِن غير انتقاء.

– فطور لذيذ مثل صاحبته.

– لذيذ بوجودك.

أضع الملاعق والصحون فوق الأطباق، وأقف لآخذها إلى المطبخ.

– هل تضيف السكر إلى الشاي؟

– لا.

– لا تَجْلِ الصحون. فقط، ضَعْها في المجلى، وتعال لنشرب الشاي وندخّن.

حين التفاتي عن المجلى أفاجأ بصوفي تحمل بيدِها منفضة مليئة بالمحارم وأعقاب السجائر. تضحك:

– أمشي حافية.

آخذ منها المنفضة، أضعها على الغرانيت. أمدّ ذراعيّ تحت إبطيها بهدوء وأحضنها مستمتعاً بنعومة ثوبها وطراوة جسدها وثدييها. تقرص ردفي بلطف:

– افتحْ درفة الخزانة فوق المجلى، واجلبْ منفضتين نظيفتين.

أمسّد شعرها، وأتركها تسبقني إلى الطاولة. أختار منفضتين خفيفتين مِن الخشب المحروق. أشعر بضيق الشحاطة بعد امتداد قدميّ داخلها، أخلعها، وأمشي مثل صوفي حافياً إلى الصالون. أقبّل كتفها

العارية، أضع منفضة أمامها، وأجلس مكاني على الطاولة. تضع سيجارة بين شفتيها العريضتين، تشعلها، وتشير لي بعينيها أن آخذ واحدة. بينما أتناول القداحة منها، أتقصّد لمْس أصابعها بحركة مفضوحة ومتداوَلة. تبتسم:

- لِمَ لا تشرب الشاي؟

أشعل السيجارة. آخذ رشفة من كوب البورسلان، وأنا أنظر في عينيها المرحتين. لا أحبّ أن أعكّر سعادة ما نحن فيه بما توارَدَ إلى ذهني مِن خواطر عن القصيدة، ومعرفتها المسبقة بي. أضع الكوب على الطاولة. أتمطى، وأنا أقول:

- أحبّ هذا الطقس الغائم في شهر آب.

تقول ضاحكةً:

- فعلاً طقس جميل، ولا سيما أنّه أمطرني وحمّمني.

أنفجر ضاحكاً، ولا أجد ما أقوله يُجاري بلاغتها العفوية والواقعية . أهدأ. أدخّن سيجارتي. آخذ رشفة إضافية مِن الشاي. أحسّ بنوع مِن الارتخاء. أنظر إلى صوفي، أرى ظلالاً مِن خطوطٍ خفيفة، بدأت ترتسم حول خديها، وشفتيها. تنظر في عينيّ باسمةً، فأشعر بحنانهما يتغلغل مِن عينيّ إلى روحي وأكاد أقول لها، لولا أنها تسألني:

- ألا تريد أن تنام؟.

- هل يبدو عليّ النعاس؟

- قليلاً.

- هل أقدر الاستلقاء على الصوفا؟

تضحك ضحكة لا مبالية وتسألني:

- لماذا؟

وتنهض متكاسلة، تتمطّى، وتكمل:

- ربما تخجل مِن النوم على التخت معي.

أنهض، وأنا أضحك من سُخفي :

- ربما قلت ذلك بفعل العادة.

تنظر إليّ باسمة. تمسكني مِن خصري، أضع ذراعي بخفّة على كتفها. نمشي باتجاه الممرّ المفضي إلى الحمام والغرفتين. نتجاوز الصالون. أشعر في الممرّ أنّني بحاجة للتبوّل، أُبعِدُ ذراعي عنها، تلتفت إليّ ببطء:

- أودّ التبوّل.

تهزّ رأسها موافقة وتخبرني:

- يوجد كرسي مرحاض في الحمام.

و تشير إلى الغرفة على يسار الحمام. وتقول:

– سأسبقك إلى التخت.

أرفع غطاء الكرسي. أرخي سروالي وكيلوتي حتى فخذي. أمسك قضيبي المرتخي، أوجهه صوب جرْن المرحاض، أتبوّل. أهزّ قضيبي، فتتساقط عدّة قطرات على جانبي الجرْن. أنتبه إليها. أسحب محرمة مِن الرول. أمسحها. أضغط على أسفل السطل إلى جانب الكرسي وأضع المحرمة. أسحب محرمة ثانية، أمسح فتحة قضيبي، وأضعها في السطل. أرفع سروالي وكيلوتي. أمشي إلى الغرفة. أرى صوفي عارية إلا من كيلوتها الأحمر، تتوسّد كفها، مديرة ظهرها إلى الجانب الذي سأنام فيه. أخلع سروالي. أتركه على الأرض. أستلقي على التخت إلى جانب صوفي. تلتفت إليّ. تبتسم. تداعب شعري. وتعود إلى توسد كفها.

أستيقظ. لا أراني في سريري. لا أرى صوفي إلى جانبي على التخت. أفرد رجليّ على طولهما، أنقلب على بطني، أتحسّس مزيداً مِن السعادة وأنا أقرّب رأسي مِن وسادتها. أشتاق إليها. أنهض بسرعة، أرتدي سروالي، لا أراها في الصالون. أدخل إلى الحمام، أراها جالسةً على كرسي المرحاض، أسمع صوت بولها يغنّي داخله، أضحك، تنتبه إليّ، وتضحك:

– أسرعْ إلى المطبخ وراقب القهوة قبل أن تتكَبّ خارج الركوة.

أدور إلى الوراء بسرعة، أجتاز باب الممر، وأهرول بحذر إلى المطبخ, لا أرى القهوة تغلي، أضعف النار تحتها منتظراً مجيء صوفي لتغليها على ذوقها. لا تتأخّر:

– ألم تغلِ بعد؟

– لا

أفسحُ لها المكان. تمسك الركوة بيدها، وترفع النار. أمدّ يديّ تحت إبطيها، وأمسك ثدييها بأصابعي:

– لا تضغطهما بقسوة هكذا.

– آسف.

أتشمّم شعرها بينما أحكّ قضيبي بمؤخرتها فيبدأ بالانتصاب. تضحك فرحة، وتدفعني بمؤخرتها، وهي تدور، حاملةً الركوة إلى المجلى. تفتح درفة الخزانة المتطرفة إلى اليسار باتجاه الباب، وتخرج فنجانين كبيرين. تسكب القهوة في الفنجان الأول إلى نصفه، وتملأ الفنجان الثاني، وبعد أن تملأ الفنجان الأول، تقول لي:

– خذ واحداً.

أحمل فنجاناً لا على التعيين، تحمل فنجانها. وأمشي وراءها إلى الصالون. تضع الفنجان على الطاولة أمام الكرسي الذي كانت تجلس عليه أثناء الفطور. أضع فنجاني أمام الكرسي المقابل لها،

وقبل أن أجلس تنظر إليّ باسمةً:

- نسينا منفضتي السجائر.

أبتسم، وأسرع إلى المطبخ. لا أرى المنفضتين الخشبيتين مكانهما، أخرج منفضة كريستال كبيرة. أتذكّر الأطباق والصحون وعدّة الشاي، لا أراها على المجلى. أضع المنفضة على الطاولة بيننا. تخرج سيجارة وتناولني إياها من طرفها. تضع سيجارتها بين شفتيها، تشعلها. تناولني القداحة مِن طرفها أيضاً. أشعل سيجارتي وأنا أضحك. تسحب سيجارتها بعمق، تنظر إليّ بمُكْر طفولي، وتنفخها في وجهي:

- اضبط قضيبك الآن. سنحتاجه في الليل.

لا تخرج كلمتي مِن خلال ضحكتي واضحةً، فتسألني متصنّعةً الحزم:

- ماذا تقول؟

- أقول: حاضر.

تبتسم برِضى، تنظر في موبايلها منشرحة، وقد عادت إلى وجهها إشراقة الأنوثة ونضارتها. وتقول لي من غير أن ترفع نظرها عن الموبايل:

- صارت الساعة الخامسة تقريباً، سيكون حظنا جيّداً أن يبقى مطعم

العجل مفتوحاً حتى الساعة السابعة.

– حسب ما أعرف، لا يغلق حتى يُنهي بيع ذبيحته. هل ترغبين أن أشتري لك منه الآن؟

– لا، أنا عازمتك إليه.

أنظر إليها باستغراب، فتنظر إليّ متسائلة، فأقول لها ما يدور في خاطري:

– أنا أكلت فيه أكثر من مرّة، ولا مرّة رأيت فيه امرأة.

– وأنا ما أكلت فيه ولا مرّة. فقط، أشتري الكباب وآكله في البيت.

– لم لا نفعل نفس الشيء اليوم؟

– للتغيير، ولأرى كيف تأكلون فيه، أنتم الرجال!

أنظر إليها بامتعاض مُبالَغٍ فيه. تغمزني. ترفع يدها ببطء، وتحرّك أصابعها بإشارة استفهام. فأجيبها بابتسامة راضية:

– مثلما تودّين.

– منيح أنك وافقت.

– المهمّ ألا ترتدي هذا الفستان الشفّاف.

– قَهْ. قَهْ. قه.

– طيّب. طيّب. ما بقى أحكي.

ترفع فنجانها باتجاهي، وتضحك:

– كأسك.

أستغرب حركتها البلهاء. مع ذلك أسرع برفع فنجاني وقرْعه بفنجانها، وأتكلّف بمبادلتها النخب:

– بصحتك.

أحاول استفزازها على سبيل التسلية، فأقول متعجباً:

– لكنْ، ما قرعناه كان فنجانين مِن القهوة!

تفطن لي، فتحاول إغاظتي بقولها:

– القهوة من أسماء الخمرة، يا شاطر.

أصمت، ولا أعرف بماذا أردّ؟. فكلّ ما سأقوله سوف يبدو مكرّراً، وبلا معنى. ومع ذلك أحاول إنقاذ نفسي بشرحِ ما هو مفهوم مِن قِبلها:

– كان ذلك من زمان. أما الآن فالقهوة قهوة. والخمرة خمرة.

– عن جدّ.

– عن جدّ.

تستسلم أخيراً. تطفئ سيجارتها مبتسمةً، وترشف ما تبقّى في فنجانها. تنظر إليّ متودِّدة، وتخبرني لترضيني:

– خلص، عندما نعود مِن المطعم سنشرب ويسكي فاخراً، جَلَبَه أخي مِن اسكتلندا نفسِها.

- آهاهْ.

- ما رأيك؟

- ستكون ليلة عظيمة.

- عظيمة مثلك.

أبتسم، وأطرق خجلاً مِن إطرائها غير المتوقّع. أرفع رأسي، وأرسِل لها قبلة في الهواء. تهزّ رأسها فَرِحة، وتُرسل لي قبلةً يضجّ بصوتها الصالون. أضحك، وأطفئ سيجارتي، وأسألها:

- ما رأيك أن أذهب الآن إلى شقتي لأبدل قميصي وسروالي، وأعود بسرعة؟

- كنت سأقولُ لك ذلك.

- تمام.

- أين موبايلك؟

- في الشقّة.

- أعطني رقمك، لأدقّ لك. وعندما تعود. دقّ على موبايلي، لأفتح لك الباب.

- 0966893882.

تدقّ الرقم، تسمع رنين موبايلي. تغلق موبايلها وتضعه أمامها.

أنهض. أقبّلها على شعرها. تقبّل خصري. ألتذّ بملس شفتيها. أمشي بسرعة إلى قميصي، أرفعه عن الكرسي، وأرتديه. وبينما أفتح باب شقتها لأخرج، أسمعها تصرخ من مكانها في الصالون:

- لا تنسَ أن تبدل كيلوتي أيضاً.

أجيبها صارخاً ضاحكاً:

- حاضر. حاضر.

أخرج من مدخل بنايتها، كأنّي خارج من حلم. بل نشوة الحلم مازالت تتملكني، وأعيشها حقاً بِكِياني كلّه. تزدحم الخواطر في ذهني وأنا أحاول وضْع نقاط علام في حارة صوفي كي لا أتوه في طريق العودة. أحسّ أنّ حارتها جديدة عليّ مثل بدلة فخمة أرتديها لأوّل مرّة. صحيح أنني مررتُ بهذه الحارة كثيراً أثناء رياضة المشي التي أمارسها عادة في الأيام الباردة. ولفتَ انتباهي جمالُها المميّز بين حواري الضاحية. لكنني الآن جزء مِن جمالها، بل أحضن جمالها كله. أشعر أنّي أعيش حلماً مستحيلاً مِن تلك الأحلام التي كانت تراود طفولتي ومراهقتي في حيّ القابون، كأن أغادر حاراته العشوائية، وأسكن في حيٍّ راقٍ ونظيف، وأن يكون لي امرأة حلوة.

لا أنكر أنّني حقّقت حلم المكان منذ زواجي الأول مِن أرملة كانت تمتلك شقة ضخمة في حيّ القصور الدمشقيّ. وتنقلّت بين عدّة

أماكن جميلة مستأجراً في ضواحي دمشق مع زواجي الثاني، كان آخرها سَكني في حيّ مساكن بزرة مُسبقة الصنع فوق السوق المالية حيث الحدائق والهدوء والنقاء النسبي بعيداً عن تلوّث المدينة وضجيجها. لكن ما يسعدني حقيقة في هذه الضاحية البعيدة عن مدينة اللاذقية حوالي أربع كيلو مترات أنّها، إضافة إلى تمتعها بكل ما ذكرتُ عن أماكن دمشق، تذكّرني دائماً بحيّ القابون مكان مولدي وطفولتي وشبابي، ولاسيما بطبيعتها الخضراء التي كان يتمتع بها. وتبدو، في الواقع، أجمل منه لخلوّها من العشوائيات تماماً، ولإطلالتها التي تبدأ مِن بيارات البرتقال وبساتين الزيتون وصولاً إلى البحر.

أيضاً لا أنكر أنّني حقّقت حلم النساء بتعرفي على كثير من الفتيات واللهو بأجسادهنّ قبل التعرّف على تلك المرأة الأربعينية التي زارتني في غرفتي القابونية ليلة شتاء دمشقيّ قارس، زيارة اتفقنا عليها وهي توصلني بسيارتها الحمراء بعد أمسيتي مع بعض أصدقاء ابنِها في منزلها. أذكر أنها حاولت أن تمارس معي كلّ الأشياء التي كانت تراها في الأفلام الإباحية بعد سفر زوجها للعمل خارج سوريا. غير أنّني كنت مهتماً بشيء واحد كان ينقص علاقاتي مع العذراوات، وهو إيلاج قضيبي في فروجهنّ. وهذا ما يجعلني أذكر تلك المرأة

دائماً فقد استمنيت في فرجها ثلاث مرّات في أقلّ من ساعة، ولولا خوفي من انتباه عائلتي إلينا لا أعرف ماذا كانت ستفعل بي في تلك الليلة البعيدة والآيلة إلى النسيان؟. هل تُنسيني صوفي كلّ النساء؟ لا أعرف. مع أنّني أراها الآن أجملهنّ.

أعبر الحديقة، باتجاه حارتي. لا أرى أحداً في طريقها بسبب حرارة الشمس التي غادرت سماءها غيومُ الصباح. أو بسبب قلّة السكان وامتلاك معظمهم لسيارات خاصة. لا أهتم لذلك بقدر اهتمامي بمداعبة النسائم لجسدي بعد أن صارت أرقّ وأبرد وأكثر حركة. أصعد درج البناية درجةً، درجةً. أطمئنّ قبل وصولي إلى باب الشقّة إلى أنّ مفتاحها ما يزال في جيب سروالي. أفتح الباب، أتنشّق رائحتها المعتادة بارتياح. أعيد المفتاح إلى جيبي. أخلع حذائي وقميصي وسروالي، أدخل الحمام، وأرميهما في سلّة الغسيل. أمشي إلى غرفة نومي، أفتح الخزانة لا أرى قميصاً مكوياً، أرتدي بلوزة سماوية جديدة. أخلع كيلوت صوفي الأسود، أقبّله وأرميه على السرير. أفتح درج الملابس الداخلية، ولا أدري لماذا أخرج مايو سباحة؟. أنظر إلى بطانته أجدها متماسكة، تغطي كامل القماش الخارجي، أرتديه، أرتاح له. أخرج بنطال جينز من الخزانة وأرتديه. أرتدي حذائي. أفتح درج مرآة الغرفة، أضع في جيبي كلّ ما لديّ

من نقود. أنظر في المرآة، أشعر أنّني أصغر قليلاً، وأزداد وسامة.
أطفئ الراوتر. وأنا أدندن أغنية نزار قباني:

"قولي أحبّك كي تزيدَ وسامتي

فبغير حبُّكِ لن أكونَ جميلا..."

أفتّش عن الموبايل أجده قرب اللابتوب، أحمله مع علبة الدخان المتواجدة بقربه. أغلق باب الشقّة، وأسرع في هبوط الدرج. أقابل على درجات الطابق الثاني جاري الطبيب، أسلّم عليه، يردّ السلام. يريد أن يفتح معي حديثاً، لا أدري ما هو؟ أتجاوزه مسرعاً، وأنا أقول له:

- نحكي لمّا أعود.

أخرج من البناية، و ضحكات الطبيب على جاره غريب الأطوار لم تزل تلاحقني. أرتاح أنّني لا أصادف أحداً آخر أعرفه في الحارة. أتابع المشي بخطى منتظمة إلى بناية صوفي. أنظر إلى موبايلي أرى إشارة مكالمتها. أقفُ أمام باب شقتها. أدقّ رقمها. أنتظر عدّة ثوانٍ. تفتح الباب. تنظر إليّ مبتهجة، تعانقني بشغف، تشمّ عنقي، وتهمس موجوعةً:

- اشتقت لك.

أضمها إلى صدري، أتحسّس شعرها، ظهرها، ردفيها. لا تبدي رغبة

بتركي . أمسكها مِن كتفيها، أقبلها على شفتيها، وأقول لها مداعباً:

– هل تحاولين التهرّب مِن العزيمة؟

تعود إلى معانقتي، تُريح رأسها على كتفي، وتزفر مبدّدةً وَجَعَها:

– أشعر أنّي أهرب إليك مِن العالم كلّه.

أضحك لأرفِّه عنها، وتسعفني بديهتي بالقول:

– هذا ما أريده.

تنظر إليّ حزينة و دمعتان تملآن عينيها. تتحرّك شفتاها ببطء، وأسمع صوتهما عميقاً مبحوحاً ومشفوعاً بكل رجاء الدنيا:

– تحكي مِن قلبك؟.

أقبّلها على جبينها، وأجيبها بكلّ ما أستطيع مِن جدّية وتعاطف:

– طبعاً.

تسقط دمعتاها على خَدَّيها، فتزيد مِن جمال وجهها نضارة وبهاء. تتركني كأنها مغلوبة على أمرها، تمشي إلى المطبخ وتغسل وجهَها. أتركها تمسحه بمنشفة المطبخ. أجلس على كنبا أرى أمامها طرابيزة عليها منفضة. أضع موبايلي وعلبة سجائري إلى جانبها. لا أجد قداحة في جيبي، أنتبه أنّ ثمة قداحة إلى جانب المنفضة. أشعل سيجارة، بينما تعبر صوفي مِن خلف ظهري إلى غرفة نومِها. أدخّن بشراهة وبسرعة. فما بَدَرَ مِنها قبل قليل أخذ يُقلقني. تتوالى

التشابكات في ذهني، فأنا كتبتُ قصيدتي "فرْج ضاحك" لأخفّف عن المُغتصَبات مِن قِبل التنظيمات الإرهابية، وهي تكتبها بالخط العريض، وتعلقها في مُنتَصَف الصالون بحيث يراها كلُّ مَن يزورها. هل تكون إحدى هؤلاء المُغتصَبات؟ لِمَ لا؟ يبدو أنّ عائلتها ثرية وقد افتقدتها بكثير مِن المال. لكنْ مَن قال لها: إنّني أرغب بإقامة علاقة مع مُغتصَبة؟ أمِنَ الضروري أن أنفّذ كلّ ما أكتبه في الواقع؟ ألا يكفيني عذاب كتابته ومرارتها؟ والأنكى أنها تريدني لها دائماً. يا لِحَظِّي التافه. كأنما مُقدَّر عليّ دائماً أن أتجرّع السم في صحن مِن العسل.

أشعر بألم على جانِبَي جبيني. ألَمٌ صرت أعرف، حسب خبرتي مِن تكراره في مثل هذه المواقف، أنّه علامة على تفكيري الخاطئ في أشياء بلاغية أكثر مما هي واقعية. أو لأقلْ: إنه علامة على عملية ذهنية تحوّل الواقع إلى بلاغة. كأنْ أمزجَ السم بالعسل لأنّ صوفي تقلقني ولأنّني أكلت عسلاً عندها على الفطور هذا الصباح. هل هذا ما أريده حقاً ، أن أتخلّى عن صوفي بهذه السرعة؟. وماذا عن تشبيهي لحارتها ببدلة جديدة؟ ألا يُمكن تأويل ذلك بأنّني أرغب بالزواج منها؟.

أتذكّر كيف اكتشفتُ مساوئي في علاقاتي وزيجاتي السابقة، والتي

أقمتها كلها بدافع من شهوتي وحدها. وما جرى بعد ذلك مِن فِراق فإنما كان بسبب ضَجَري مِن أجسادهنّ. صحيح أنّ هذا شيء طبيعي، ولا ألامُ عليه، لكنه لا يبرّر حماقاتي، ولا سيما أثناء سكْري. طيّب لماذا تُقلقني صوفي مِن أول يوم، طالما لم أشعر بأيّ نقْص في جسدها أو في عقلها أو في نفسيّتها؟ بل على العكس من ذلك تماماً أليس مِن الأولى أن أتساءل: كيف استطاعت هذه المرأة أن تحافظ على جاذبتيها الجسدية والروحية على الرغم مما قد يكون حصل لها مِن الاغتصاب في مجتمع بائس ومتخلف وعنيف مثل مجتمعنا؟ لماذا أقلق مِن بضعة دقائقِ وجْد عبّرتْ عنها امرأةٌ وحيدةٌ ومنعزلة، ويمكن أن تصيب أية فتاة عذراء رومانسية وحسّاسة، وتعشق بصدْق ووَلَه؟.

أطفئ سيجارتي. أسخر مِن نفسي وتناقضاتها. أشعر أنّني مُتعب، وأخاف حقيقة أن أخسر صوفي مِن كثرة هواجسي وشكوكي. وكي لا أستمرّ في تحليلاتي مِن غير إرادة مني، أو بالأحرى كي لا أهدم كل ما بنيته مع صوفي هذا اليوم في لحظة سُكْر متوقّعة مِن شرب الويسكي، أندَه لها بصوت مخنوق، ويكاد يبكي:

– صوفي.

– نعم. تعال، أنا بحاجة لك.

يصلني صوتها مَمطوطاً، رائقاً، وغَنِجاً حتى يكاد يمحو جميع هواجسي.

أنهض متباطئاً. أمشي بخطى مكسورة وحزينة. أقف على باب غرفتها. أنظر إلى جسدها نصف العاري بشوق وتلهّف. لولا أنّ ملامح القلق والحُزْن لم تزل تسيطر على وجهي. تنتبه إليّ، تشعر بحزني:

– ما بك؟ تعال. تعال.

تتقدّم نحوي بسرعة. تُعانقني ضاحكة:

– آسفة. أنا هكذا، لا أستطيع أن أكبحَ مشاعري.

تضع رأس سبابتها على شفتي، وتكمل:

– بعد مغادرتكَ شعرتُ أنّني سعيدة كما لم يحصل مِن قبل. وخفْتُ أن تكون قد شبعت مني، ولن تعود.

أضحك متحرّراً مِن احتقاني. أمسك سبّابتها، أمصها. وأتساءل:

– كيف أشبع منك؟

– لا أعرف. المهم أنك الآن معي.

آخذ محرمة مِن علبة على طاولة المرآة، أمخط احتقاني. أمسكها مِن خصرها، وأقبّلها. تقبّلني، وتطلب مني أن أساعدها ببكل حمالة صدرها. تلتفت إليّ، تنظر إلى بلوزتي بإعجاب. تخرج من الخزانة

بلوزة سماوية فضفاضة، وترتديها فوق سروالها الجينز:

- ما رأيك؟

- جميلة.

تنظر إلى المرآة، تتلمظ شفتيها مِن غير أن تضع الروج عليهما. تحمل حقيبتها اليدوية المهيّأة على طرف التخت. تمسك يدي، ترفعها إلى الأمام، وتطلق صيحة فرحة:

- هيّا إلى العجْل.

أمشي أمامها مسرعاً استجابةً لصيحتها. أتوقف أمام القصيدة، فتصطدم بظهري تمسكني بخصري ضاحكة. ألتفت إليها وأسألها كأنما أرغب بإنهاء قضية ما:

- لماذا تعلقين هذه القصيدة، يا صوفي؟

تنظر إليّ باستغراب، وتجيبني بلا مبالاة:

- لست أنا من علقّها.

أنظر إليها مندهشاً، وأسألها باهتمام مُبالَغٍ فيه:

- مَن فَعَلَ ذلك؟

- أخي.

أشعر أيّ أحمق أنا. كيف أداري حَرَجي؟ صحيح لم أصارح صوفي بمساوئ شكوكي بها. لكن كيف أسامح نفسي؟ ولكي أهرب مِن كلّ

ذلك، أسألها محتجاً مع شيء مِن المزاح:

- لماذا لم يكتب اسمي عليها؟

تضحك، ترفع يديها بِحَيْرة، وتضغط شفتيها. تدفعني إلى الأمام، وهي تُخبرني ساخرة من أسئلتي:

- حين كانت تعجب بها أيّة صديقة مِن صديقاته كان يخبرها أنها لك.

أتدافع إلى الأمام ضاحكاً حتى أفرغ تماماً مِن تفاهة ما وضعت نفسي فيه مِن تأويلات وشكوك. نصل قرب باب الشقّة، ترتدي صوفي حذاءها. ونخرج.

نتمشى في الطريق إلى مطعم العجل مثل صديقين قديمين، لا يأبهان بِمَن حولهما. لم تزل الشمس حادة فوق البحر قبالتنا. تضع صوفي نظارتها السوداء. أخفض رأسي بحيث أقي عينيّ مِن النظر إلى الشمس مباشرة.

نتخذ رصيفاً تظلله البنايات حين التوائها عن جهة الشمس. أحاول أن أعرف كم الساعة؟ أنتبه أنّني نسيت الموبايل وعلبة السجائر في شقة صوفي. ألمح دكاناً، أتوقّف أمامه، وأسألها:

- هل معك دخان؟

- لا.

– انتظريني قليلاً، لأشتري.

تضع صوفي علبتي الدخان والقداحتين في حقيبتها. تنظر إلى موبايلها وتخبرني أنّ الساعة قاربت على السابعة. نعبر ما تبقى مِن بنايات الضاحية باتجاه الاوستراد الذي يصل بين اللاذقية وَكَسَب. نفتش عن معبر في الحاجز الاسمنتي الذي يفصل شارعي الذهاب والإياب. أمسك يد صوفي، أنظر إلى خلوّ شارع الذهاب ونتجاوزه. أوقِفُها على المعبر، أنظر إلى خلوّ شارع الإياب ونتجاوزه. نمشي عدّة أمتار في اتجاه كَسَب، نجد أنفسنا أمام مطعم العجْل. نفرح أنّه ما يزال مفتوحاً. نتجه إلى الدرج، أترك يدها، وأصعد أمامها. أقف أمام الباب، تقف بجانبي، ترفع نظارتها فوق رأسها، وتستطلع المكان:

– هناك طاولة في الزاوية، ربما لم تزل فارغة بسبب الشمس.

– دعينا نُسرعْ إليها.

تمشي أمامي وأتبعها وسط ضجيج الرجال ونظراتِهم غير المبالية، سوى مِن تطلعات بعض الشباب المُعجَبة بدخول صوفي. أرتاح لاختيارها الجهة المقابلة للجدار. تضع حقيبتها إلى جانب النافذة، تجلس، وأجلس قبالتها. تبتسم، وتنظر إليّ برضى:

– بفضلك أحقّق الآن هذا الاكتشاف المُمتِع.

- لكن المكان بسيط كما ترين عبارة عن غرفة كبيرة تزدحم فيها الطاولات والكراسي البلاستيكية.

- رائحة العَرَق والكباب منعشة.

- آها. فهمت. كنت تشمينها من تحت حين تشترين الكباب.

- صحّ.

يأتي نادل المطعم. شاب ضخم يرتدي سروال جينز وقميصاً أسود .

يضع الماء وعلبة المحارم على طَرَفِ الطاولة، وهو يرحّب بنا:

- هلا أستاذ. كيفك آنسة؟

نردّ على تحيته، وتسألني صوفي:

- ما رأيك أن نشرب العَرَق؟

أنظر إليها بعدم رضى، وأسألها:

- والويسكي الذي وعدْتِ به؟

- لا نشرب كثيراً مِن العرق، نتفة.

أنظر إلى النادل، أبتسم لابتسامته العريضة مِن جَدَلِنا:

- سمعتها. هل لديكم ربعية؟

يهزّ رأسه ضاحكاً وموافقاً:

- أيّ طلب آخر أستاذ؟.

تجيبه صوفي:

- جئنا أولاً بالعرق، وبكل ما لديكم من أنواع المازة.

- لم يبق لدينا سوى بابا غنوج والشنكليش والمخلل.

- اجلبها لنا.

- تكرمي، آنسة.

تبدأ الشمس بالمغيب. تُضاء مصابيح المطعم. تُخرِج صوفي علبتَي الدخان والقداحتين. يضع النادل ربعيّة العَرَق وكأسين وإبريقا مِن الثلج قرْب الماء والمحارم. أملأ لِصُوفي كأساً وأناولها إياه وأملأ لنفسي كأساً، أرفعه أمامها:

- بصحتك.

تقرع كأسي فرحةً كمن يجرّب لعبةً جديدة:

- بصحتك.

تأخذ رشفة كبيرة، تتلذّذ بلذعها. تفتح علبة دخانها، وتشعل سيجارة. يضع النادل طبَقاً أمامها وطبَقاً أمامي. ثم شوكة وسكيناً فوق كلّ طبق. ويوزّع المازة في وسط الطاولة:

- هل ترغبان بشيء آخر.

- تسلم يداك، لو تعود بعد قليل.

تجيبه صوفي. تنظر إليّ باهتمام، وتسألني:

- ماذا تريدنا أن نأكل؟ أنا أشتري أحياناً مِن تحت شققاً مشوية

طيبة.

أنظر إليها بمُكْر، وأجيبها مداعباً:

– كل واحد يأكل مِن الشكل الذي يناسبه.

تفكّر بما قلت. تنظر إليّ مشدوهةً وتصدرً قهقهة تملأ المطعم. أنظر إلى الطاولات أرى جميع الرؤوس تنظر باتجاهنا، أرفع كأسي تجاه وسط المطعم، وأقول بصوت مسموع للجميع:

– بصحة الشباب.

أرى بعض الكؤوس ترتفع مع بعض الضحكات. وبعض الرؤوس تشيح بوجهها غير مبالية، وبعضها باستياء. أضع الكأس أمامي مِن غير أن أشرب منها، وأنظر إلى صوفي باسماً، فتضع يدَها على فمِها، وتكبت قهقهة ثانية. يُسرع النادل ربما ليتدارك الموقف. أطلب منه أنا هذه المرة:

– أوقيتان كباب وأوقيتان شقف مشوية.

أسأل صوفي:

– أظنّ أنّ هذا يكفي.

فتهزّ رأسها موافقة وهي ما تزال تكبت قهقهتها.

– تكرم أستاذ.

– لو تضع الجميع في طبق واحد.

- تكرم أستاذ.

ينظر إلى صوفي حائراً مبتسماً، ويُغادر.

يكتسب مطعم العجل شهرة واسعة في مدينة اللاذقية، ولاسيما لدى شريحة الموظفين الذين يبحثون عن لقمة طيّبة، ومكانٍ خالٍ مِن مظاهر البريستيج المُبالَغ فيها في المطاعم المنجمّة، والتي لا تتوفر لمعظمهم إمكانية توفير ثمنها دائماً. وربما غياب البريستيج عن هذا المطعم هو ما يجعله غير مُفضَّل مِن قبل النساء بسبب شيوع وسائل الميديا والتواصل الاجتماعي وما يعني ذلك مِن طغيان قِيَم التفاخُر الاستهلاكية. وبهذا المعنى قد يكون دُخُول صوفي إلى هذا المطعم مُستهجَناً، ولكنه لا يشكّل خرْقاً لعلاقة الرجال والنساء في هذه المنطقة الريفية التي تتمتع فيها المرأة بمعظم حقوقها الشخصية في كيفية إقامة علاقاتها مع الرجل مِن حُب وصداقة وزواج.

يذبح هذا المطعم كلّ يوم عجْلاً في الصباح. وغالباً ما أراه مِن شبّاك السرفيس وأنا في طريقي إلى المدرسة، مُعلَّقاً أمام الطابق الأول مِن المطعم الذي يضمّ المطبخ وغرفة بَيْع اللحم النيء والمشاوي السفاري، لسلخ جلده، وتقطيعه. وعلى الرغم مِن نشافة لحم العجل مِن الدهن. إلا أنّه مُفضَّل على الخروف لدى أهل هذه المنطقة، ولذلك يوازي سِعْرُ لحمه سعرَ لحم الخاروف، وأحياناً

يتفوّق عليه، على غير ما هو الحال في دمشق حسبما أعرف.

تلاحظ صوفي شرودي، فتسألني:

– أين ذهبت؟

– كنت أفكّر أيهما أفضل لحم الخروف أم لحم العجْل؟

– دهْن الخروف طيب. لكن لحم العجل الطازج رائحته ذكية. ويكاد يخلو من الزنخة.

– فعلاً. جئت إلى هنا مرّة لأشتري نصْف كيلو مِن اللحم النيّء، ولا أذكر لماذا طلب منّي اللحام أن أشمّه؟ فأدهشتْنِي رائحته.

– قبل استفحال الحصار وهبوط قوة شراء الليرة على هذا النحو المزري ، كان المطعم يُغلَق قبل السادسة مساء.

– صحيح، أما هذه الأيام فغالباً ما يُغلق عند التاسعة لقلّة الزبائن.

تقترب رائحة المشاوي الشهية. أبْعِدُ صحن البابا غنوج بينما تُبْعِدُ صوفي صحنَ الشنكليش عن وسط الطاولة. يضع النادل مكانهما طَبَقَ الكباب والشقف. يرحّب بنا ثانية، يحمل الصحنين الفارغين، ويغادر الطاولة مِن غير أن يسألنا عن طلبات أخرى. تُسارِع صوفي إلى وضع سيخَيْن مِن الكباب على طبقها بابتسامة عريضة، وأفعل الشيءَ نفسه محاولاً تمالك نفسي بلا أيّ تعبير أو حركة يُمكِن أن تدغدغ صوفي وتُضحِكها. نلتهم اللحم بسرعة وصمت، إلى أن

نقضي عليه وعلى البصل المشوي كلّه.

تأخذ صوفي رشفة ثانية مِن كأس العَرَق، وتُشعل سيجارة. أُشْعِل سيجارة مِن غير أن أشرب شيئاً لأتلذّذ بمزيج الدخان مع الدسم داخل فمي. أنظر إلى صوفي، أراها تدخّن شاردة، والسعادة تغمر وجهها بلونها الورديّ. تنظر إليّ وتضحك، وترحّب بي بعبارة متداولة بين الرجال هنا:

- أهلا بالحبيب.

فأجيبها بعبارة موازية:

- على رأسي والله.

فتضحك منشرحةً مِن قلبها.

أنظر إلى ساعة الحائط أمامي، فأراها تُشير إلى الثامنة إلا أربع دقائق. أخبِرُ صوفي:

- صارت الساعة الثامنة، ما رأيك بالذهاب؟

- لازم. انتفخ بطني، وأخشى أن أطلق بعضَ الأصوات.

أغلِقُ فمي على ضحكة عالية. أرى النادل يحاسب طاولة قريبة منا، أنده له، يلتفت إليّ فأشير له أن يأتي بالحساب.

تُخرِج صوفي عدداً مِن الأوراق المالية مِن فئة الألف وتقرّبها مني. وهي تقول:

- خُذ النقود، وحاسِبْ عني.

أهزّ رأسي رافضا.

- أنا العازمتك.

- أنت تكفلت بالعزيمة، وأنا أتكفّل بالدفْع.

تقول بلهجة حاسمة يبدو عليها الانزعاج والحنق:

- لا، أنا عازمة يعني أنا سأدفع.

أضحك وأدفع الأوراق باتجاهها. وأقول لها:

- لا مشكلة لديّ. لكن لماذا لا تُحاسبين أنت؟

تنظر إليّ مبتسمة، وتقول بتحدٍّ مرح:

- سأحاسِب.

يصل النادل، ويمدّ الفاتورة إليّ، فأشير بِيَدِي إلى صوفي. ينظر إليّ مستفهماً، فأقول له:

- هي ستحاسِب.

ينظر إليها، ويكاد يضحك مِن أطوارها الغريبة، ويُعطيها الفاتورة. تنظر إليها، تُعطيه معظم ما أخرجتْه مِن آلاف. تضع الباقي في الحقيبة ثم تضع الدخان والقداحتين فيها، تُغلقها وتمسكها بيدها، تنظر إليّ بدلع، وتقول:

- هيّا ننطلق.

ما نكاد نبتعد عن المطعم عدّة أمتار حتى أسمع مؤخرة صوفي تفرقع. تضحك، فأضحك. تقول على سبيل الاعتذار:

- أكلتُ اليومَ كمية كبيرة مِن البصل. زيادة عن اللزوم. ولا يحتوي المطعم على مرحاض مناسب.

أمسك يدها، وأقول لها مُتضامِناً:

- يعجبني كلّ ما يصدر منك.

تشدّ على يدي. نجتاز الأوستراد. لا أشعر بحاجة لطلب تكسي فما تبقى مِن ضوء الشمس الغاربة يكفي للوصول إلى شقة صوفي على مهل. وهذا ما نحتاجه بعد وجبة دسمة.

تُنعشنا الأنسام الباردة التي تداعب جسدينا مِن كل الجهات. مع ذلك لا تتركنا حرارة الجوّ ورطوبته مِن غير تعرُّق.

نتوقف أمام شقتها. تخرج مفتاحها، تفتح الباب، وندخل. تخلع حذاءها، وتتجه إلى المطبخ. فأخلع حذائي، وأمشي، لأجلس في الصالون. تتبعني بصينية كريستال ملوّنة، عليها إناء معدني مملوء بالثلج على طرفه مِلقَط، وعلى جانبيه كأسان فاخران. تضعها على طاولة صغيرة أمام الصوفا. وتقول لي:

- إذا تحب اخلع ثيابك، وتعال اجلس هنا.

أخلع بنطالي وبلوزتي، أضعهما على الكنبا.

بينما أتجه إلى الصوفا، تكون صوفي قد عادت من المطبخ ثانية، تناولني زجاجة الويسكي باسمة، وتقول لي:

– اشرب كأساً إلى أن أعود.

تحمل ثيابي، وتمشي باتجاه الممر، وهي تخبرني:

– سأعلقهما في خزانتي.

أنظر إلى ماركة الويسكي، لا تبدو مألوفةً لديّ. أفكّك الشروحات بالإنكليزية، أفهم أن الشركة المصنعة تَمَّ تأسيسها في نهايات القرن التاسع عشر، وأن هذه الزجاجة مُقطَّرة لدى الشركة الأم في اسكتلندا، وليس في أحد الفروع خارجها. والأهم مِن ذلك أنّ مكوّن شرابها الرئيسي هو الشعير. وهذا بالنسبة لي أفضل لتبوّل المزيد مِن الرمال التي اكتشفتُ إصابتي بها منذ فترة.

أجلس على الصوفا. أملأ الكأس أمامي بالثلج، أفتح زجاجة الويسكي وأسكب قليلاً منها. أقرّب الكأس مِن أنفي، تُنعشني رائحته الفوّاحة. آخذ رشفةً وأتلذّذ بمذاق الويسكي الأصلية. أشعر برغبة بالتدخين. أمشي إلى الممرّ، أسمع صوت الدوش، فأعرف أنّ صوفي داخل الحمام، أفتح بابه لتسمع صوتي:

– أين الدخان؟

– لم يزل في الحقيبة، على الطاولة قرْب الباب.

أغلق باب الحمام، وصوتها لم يزل يكلمني:

– اجلبْها معك إلى غرفة النوم.

أدخل أولاً إلى المطبخ لأجلب منفضة الكريستال الكبيرة. أضعها بالقرب من كأس الويسكي. أخرج علبتَي الدخان والقداحتين، أضعهما على الطاولة، وأسرع إلى غرفة النوم، لأضع الحقيبة على طرف التخت.

أفكّر ألا حاجة بي إلى شرب الكثير مِن الويسكي هذه الليلة. واستمنائي صباحاً في فرج صوفي مرتين كافٍ لإطالة فترة انتصاب قضيبي في الثالثة لاعتيادِه على الاحتكاك. أهمّ مِن ذلك أنّني أخاف إنْ أكثرتُ مِن الشرب أن يعجز عن الانتصاب، أو ربما أنام في حضن صوفي على الصوفا من غير أن أفعل بها أيّ شيء.

أشعل سيجارة. أحمل كأس الويسكي مشجِّعاً نفسي بما التهمته مِن عسل وشواء، إضافة إلى نومي الطويل فترة الظهيرة. آخذ رشفة صغيرة مِن الكأس وأضعه على الطاولة. تدخل صوفي بشَعرها المبلل وهي تتمايل بروب أحمر شفاف لا يكاد يصل إلى أعلى فخذيها، مفتوح مِن الأمام إلا مِن زر تحت ثدييها مباشرة يرفعهما أكثر لتبرز حلمتاهما إلى أعلى كحجلين يشدوان. ما هو أكثر جمالاً كيلوتها الأسود الرفيع والعانة المنفوشة فوقه كعشّ على جذع

شجرة أملس. تقف أمامي، تمسك بطَرَفَي ثوبها وتبعدهما عن فخذيها، وتسألني:

- ما رأيك؟

أضحك متذكراً نكتة قرأتها مؤخراً على الفيس بوك. فأقول لها ما جاء في خاتمتها:

- الذين استحوا ماتوا.

تقهقه، وتجلس إلى جانبي لتسرد لي النكتة ذاتها:

- اسمعْ هذه النكتة:" تعرض شاطئ لقنبلة كيماوية، فرأى رجل امرأة قربه، نزع حمالة صدرها، قطع نصفها ووضعه على وجهه ووضع النصف الثاني على وجهها، وقال لها: الذين استحوا ماتوا".

- قهْ قهْ قهْ.. أعرفها.

تضربني على كتفي وتأمرني بغنج وزعل مصطنع:

- صبّ لي كأساً.

أناولها الكأس، أقرع كأسي به، وأقول لها:

- بصحة أجمل صوفي.

- بصحّة أجمل نديم.

تأخذ رشفة كبيرة، تتلمظها بشفتيها ولسانها، تضع الكأس على الطاولة أمامها وتُبدي إعجابها به:

- ويسكي قوي وطيّب.

- فعلاً، لم أذق بحياتي أطيب منه.

تضحك، وهي تقول:

- هذا لأنّك فقير.

أقهقه. أقهقه أكثر لأنها تقول الحقيقة. أرفع كأس الويسكي، وأكرعه إلى آخره. ترفع كأسها، وتكرعه كله. أنظر إليها بِلَوم، أحني وجهي على وجهها، وأهمس في شفتيها:

- لا ينبغي أن تجاريني في الشرب.

تمدّ لسانها داخل فمي وتخرجه، وتهمس في شفتيّ:

- فقط، هذا الكأس.

أشعر بقصيبي ينتصب. أُبْعِدُ وجهي عنها، وأسألها:

- ما رأيك بكأس آخر؟

- مثلما تودّ.

أملأ الكأسين بقطع الثلج التي تضاءلت إلى النصف، وأسكب الويسكي إلى حافتيهما. أغلق الزجاجة وأضعها على يمين الصوفا. تتناول صوفي كأسها، تأخذ رشفة صغيرة. تضع رجلاً على رِجْل، وتقول لي متنهدةً:

- نديم، حبيبي، ضع سيجارة في فمي و أشعِلْها لي.

أنظر إليها، شاردة، مسترخية، لا تودّ التخلّي عن كأسها وما فيه مِن سعادة. أنحني لألتقط لها سيجارة مِن علبة الدخان على الطاولة، أجد فمي أمام ركبتها، أقبّلها. أضع السيجارة بين شفتيها، وأشعلها. تسحب قليلاً مِن الدخان، وتنفخه إلى أعلى، وتهمس كأنما لنفسها:

– ما أروع هذا اليوم.

أوافقها، مِن غير أن أقول. ألهي نفسي برشفات مِن الويسكي الذي أخذ يبدو لي أكثر سلاسة وعذوبة، وأنا أتفرّج على تفاصيل جسدها متشهياً كلّ عضو منه. تطفئ سيجارتها، تشرب جرعةً كبيرة مِن كأس الويسكي وتضعه على الطاولة مِن غير أن تنهيه. تنظر إليّ بعينين كسولتين، متشهيّتين، وتسألني بابتسامة راجية:

– ألا ترافقني إلى غرفة النوم؟

أضع يدي تحت إبطها. تنزل رجْلَها عن الأخرى وتقف مِن غير مساعدتي، فأطمئنّ لعدم سكْرها. تخرج مِن وراء الطاولة وتنتظرني. أخرج إليها وكأس الويسكي لم يزل في يدي. أمسك بخصرها وتمسك بخصري. نمشي حافيين، شبه عاريين، يحفّ جسدانا ببعضهما كجذعي شجرة مباركة تمايلها نسمات مروحة آلهة قديمة. آخذ رشفة مِن كأس الويسكي قبل أن أضعها على طاولة المرآة في الغرفة. أحضن صوفي مِن كتفها، وأمسك عانتها لأوقظها قليلاً، فتضع

أصابعها على المايو فوق قضيبي، وتلحس عنقي وذقني وشفتيّ. أنحني على ثدييها أمص حلمتيهما مِن فوق الروب. تضع يدها داخل المايو وتُداعب عانتي. أفكّ زرَّ روبها، أدخل ذراعي تحت إبطيها، وأضمها، مبعداً يدها، ليتمكن صدري من ملامسة ثدييها كلّهما. أحضن شعرها بين يديّ أنحني بشفتي لتلتقطا شفتيها. تمدّ لسانها داخل فمي أمصه وأراقصه بلساني. تضع يديها على ردفي وتسحبني جهة التخت. تجلس على طرفه. تشدّ ردفي ليلامس قضيبي فمها، تعضه برقّة من فوق المايو. تنزل المايو إلى أسفل قدميّ وتعريني منه. تتشمّم عانتي، تلحس خصيتي، يبدأ قضيبي بالانتصاب . تمسكه وتراقصه بلسانها، تلحسه وتمصه حتى تتأكّد مِن انتصابه كاملاً. تتعرى مِن روبها. تستلقي على التخت مِن غير أن تخلع كيلوتها. أستلقي فوقها، رجلاي بين رجليها، وذراعيّ مشدودتان على جانبي صدرها. تمسك قضيبي تبعد به خيط كيلوتها وتدخله قليلاً في فتحة مهبلها، تخرجه وتدخله وهي تتأوّه أمام عينيّ المبهورتين بملامح وجهها وتعابيره الممزوجة بين اللذة والألم .

تتركه، فأضغطه إلى الأمام، فتشهق مع انزلاقه إلى رحمها. ألتقط ردفيها بأصابعي، ترفع حوضها ورجْليها، أمسك فخذيها فتضع ساقيها على كتفيّ، أدفع قضيبي داخل فرجها أسحبه. أدفعه، أسحبه.

أدفعه، أسحبه بسرعة. أدفعه، أسحبه بسرعة أكبر. أدفع بحوضي، تدفع بحوضها. تنزل رجْليها، وتنقلب على بطنها، أستلقي على ظهرها، أشدّ ذراعي على جانبيه، وأدخله تحت شرجها، تمدّ يدها وتزلقه إلى مهبلها، أفرك مؤخرتها بعانتي وأسفل بطني، أدفعه، أسحبه. ترفع مؤخرتها وتتكئ على ركبتيها. أمسك ردفيها، وأترك حوضي يضرب مؤخرتها بحركة تلقائية منتظمة آخذة قضيبي داخل فرجها جيئة وذهاباً. تطوي يدها وتستلقي على جنبها. أرفع بيدي فخذها، أدفع قضيبي إلى فتحة مهبلها فينزلق إلى رحمها. أحرّكه جيئة وذهاباً. تتلاحق أنفاسي، ترتفع تأوّهاتي، أصرخ قاذفاً منيّي داخل رحمها. تضع يدها على ردفي، وتقول:

– اتركه حتى يخرج لوحده.

أنتظر قليلاً حتى يرتخي. أقبلها على كتفها، أنهض، وأنزل عن التخت، آخذ منشفةً، وأذهب لأتحمّم.

أدخل إلى البانيو أبلّل عانتي، أضع قليلاً من الصابون عليها، أرغيها، أرغي قضيبي وخصيتي، أشطفهما. أتناول المنشفة، أنشّف، وألفّها حول بطني.

أنظر إلى صوفي أراها نائمة. أتناول كأس الويسكي عن طاولة المرآة، وأمشي إلى الصالون. أضع الكأس على الطاولة الصغيرة.

أجلس على الصوفا. لا أرتاح بالمنشفة. أذهب إلى غرفة النوم، أضع المنشفة على كرسي المرآة، أرتدي كيلوتي، وأعود إلى كأسي. لا يخطر على بالي أيّ شيء سوى أنّني عشت يوماً جميلاً كما قالت صوفي. أحاول أن أتذكّر يوماً آخر عشْتُه سابقاً في حياتي بهذا الجمال، فلا أتذكّر. أكتفي بما أنا فيه الآن مِن سعادة وجمال. أنهي كأس الويسكي، وأشعر بلذّة النعاس. أذهب إلى التخت، أستلقي إلى جانب صوفي، وأنام.

اليوم الثاني

أستيقظ على لهاث صوفي وهي تتشمم إبطيّ. أستمتع وأتلذّذ بنعومة ثدييها كيف تمرّرهما على قضيبي وخصيتي جيئة وذهاباً. أدغدغ ظهرها لتشعر باستيقاظي. تنظر إليّ بتضرّع، وتقول بتوسّل طفلة ترغب بمزيد مِن حلوى أحبّتها:

- أودّ أن أركبك.

أبتسم وأشير برأسي إلى وسط جسدي لتفعل ما تشاء. تخلع كيلوتها بسرعة، تضع ركبتيها على جانبي ردفي، و ترفعهما. تمسك قضيبي وتدخله في فتحة مهبلها وتهبط عليه ببطء. تعلو وتهبط رويداً حتى ترتاح لحركته داخل مهبلها. تنحني على وجهي تمسك شفتاها بشفتي وتلتهمهما بتلذّذ وهمهمة. أمسك لسانها وأمصه مبتلعاً ريقها. أمسك ردفيها بأصابعي، وأحرّك حوضي من تحتها مدّاً وجزراً، تلتفت بذراعيها وتضعهما فوق فخذيّ. تحرّك حوضها فوق حوضي جيئة وذهاباً، تسرع حركتها، تتسارع أنفاسها وتأوهاتها واهتزازات ثدييها على صدرها، تصرخ وتعلو آخاتها. أحسّ بمنيّي سيتدفق، أخبرها بذلك لتسرع إلى ذروتها. لكنها تنحني عليّ ببطء لكيلا يخرج قضيبي

من فرجها. ترتاح بكامل جسدها عليّ، وتقول لي:

- اقلبني على ظهري من غير أن تخرجه.

أضع يديّ على ردفيها وأضغط على حوضها وأميلها بصدري إلى أن تستلقي على ظهرها تحتي، أشدّ ذراعيّ على جانبي ثدييها، وأستند على ركبتيّ. أرجع حوضي وأضغطه على حوضها، أرجعه وأضغطه بسرعة، تخرج تنهدّاتي تلقائية، أصرخ قاذفاً ما لديّ من منيّ في رحمها. وأنقلب على ظهري إلى جانبها.

تضع يدها على صدري. ألتفت برأسي إليها، تحرّك شفتيها:

- حبيبي، لو سمحت، هناك في الدرج الثاني تحت المرآة فوط. اجلب لي واحدة.

أنهض فوراً من غير كلام. آتيها بواحدة. تخرجها من غلافها الورقي، تمدها، وتقول لي:

- لو عذّبتك. يوجد إلى جانب الفوط كيلوتات عادية. اجلب لي واحداً.

تضع الفوطة على فرجها. ترتدي الكليوت. تنظر إلي مبتسمة، وتخبرني:

- سأبقى مستلقية على ظهري قليلاً. خذ منشفة من رفّ الخزانة وتحمّم.

أفكّر ليس لديّ ما أفعله سوى ما تقول. أخرج المنشفة، أنحني وأحمل كيلوتي.

أخرج من الحمام. لا أرى صوفي في غرفة النوم. أعبر الممرّ، أمشي إلى المطبخ. أسمع صوتها من خلفي يناديني:

– نعيماً.

ألتفت فأراها بروبها الأحمر جالسة في مكانها إلى طاولة الطعام. وأمامها صينية القهوة. أبتسم لها. وأعود باتجاهها. أجلس قبالتها:

– ألن تتحمّمي؟

– ما الآن.

– متى؟

– بعد القهوة.

تسكب فنجاناً لي. تقرّبه باتجاهي. وترفع سيجارتها وتدخّن. أتناول فنجاني، آخذ رشفةً منه، وأضعه أمامي. أشعلُ سيجارة، وأسترخي. أتفرّج على جمال صوفي وأشجار حديقتها خلف النافذة. تضرط. فأضحك. ترخي شفتها السفلى بزعل. أميل برأسي عنها مبتسماً. لا أعرف ماذا أقول؟ أو ماذا أفعل؟. أشرب مِن فنجان القهوة وأدخّن. تضرط ثانيةً، فأقهقه. تطفئ سيجارتها، وتنهض. تغادر الطاولة وهي تقول ضاحكة:

- ذاهبة لأتحمّم. إذا أردت أن تأتي إلى المرحاض لا تخجل منّي.

- أكيد.

تدير ظهرها لي وتمشي، أبقى ألتفت وراءها، وأستمتع بمراقبة مؤخرتها حتى تغيب داخل الممر. أطفئ سيجارتي. أشرب جرعة كبيرة مِن القهوة. تتحرّك أمعائي، أسمع صوت غازاتها. أشعل سيجارة ثانية. أشعر بارتخاء. تفرقع مؤخرتي، أطفئ السيجارة. أنهض وأسرع إلى الحمام. تراني صوفي داخلاً، تضحك وتتابع فرْكَ جسدها على مهل. أرخي كيلوتي، وأجلس على كرسي المرحاض. أضرط وتتدافع قطعتان طويلتان للخروج مِن أمعائي. أنتظر قليلاً، لا يتحرّك شيء. أضغط على بطني، أتمطى. لا شيء. أتشطف. أنشّف ما بين فخذي وخصيتي. أضع المحارم في سطل القمامة. أرفع كيلوتي. أمشي إلى المِغسلة قرْب الباب، أنظر في المرآة إلى ذقني غير المحلوقة. أفرك يديّ بالصابون وأشطفهما. أرى منشفة معلّقة على يمين المرآة، أنشفهما. ألتفت إلى صوفي. أسألها:

- هل تريدين شيئاً؟

- لا حبيبي. شكراً كثيراً.

- هل أفرك لك ظهرك؟

- لا، تسلم لي، فركتُه.

بعد استمتاعي بصوتها الممطوط الغَنِج. أنظر إلى جمال ثدييها الحَجَليين. وأمشي إلى الصالون.

أشعلُ سيجارة. أسكبُ ما تبقى بالركوة مِن قهوة باردة. أكرعها. أسحب شيئاً مِن الدخان وأنفخه باتجاه النافذة. أشرد متعجّباً مِن حالي مع صوفي كيف نعيش كزوجين أليفين ولم يمضِ على تعارفنا أكثر مِن يوم؟.

أشعر بقلق لا أعرف مصدره، ولا شيء يدعو له، ولاسيما بعد أن تأكّدت مِن أن لا علاقة لصوفي بوجود قصيدتي هنا. بل لا شيء يدلّ، في الواقع، على أنّها تعرّضت لأيّ أذى مِن الإرهابيين. لا مِن الإرهابيين ولا مِن غيرهم. لا أرى ولا أسمع ولا أشم أيّ شيء يقف عائقاً أمام عفويتها وانطلاقها في علاقتها معي، لا أثناء ممارسة الجنس ولا في التعبير عن عواطفها تجاهي ولا في خوفها مِن فراقي. أتساخف في خواطري وأتساءل: هل هو قلق لا واعٍ مِن كونها غير عذراء؟ أضحك ساخراً مِن سؤالي بسؤالي: متى كنت أهتمّ بعذرية النساء؟ ثمّ لو كانت عذراء هل كانت علاقتنا ستجري في المجرى الذي جرت وتجري فيه على هذا النحو مِن الحرية والجمال؟ وأجيب حاسماً: لا.

أسحب ما تبقى في سيجارتي مِن دخان، أسحق عقبها وأدقّه في

المنفضة، وأنا أضحك بِمَرَح لاكتشافي الباهر أنّ القلق الذي أعيشه في هذه الدقائق هو فعلاً قلق لا واعٍ. وسببه صوفي. ولكنه قلق قد يكون بسببٍ مِن فرْط السعادة التي أعيشها معها.

أضع المنفضة والفنجانين على الصينية إلى جانب الركوة. أرفع الصينية بكلتا يديّ، وأمشي إلى المطبخ. أفتش عن المقص، لا أراه. أجد سكيناً بِنصْل منشاري في درفة الخزانة فوق المجلى، أرتدي الشحاطة التي لم تغادر المكان الذي شلحتها فيه. أفتح باب الحديقة. أتضايق أنّ هذا الصباح مشمس وأشدّ حرارة مِن صباح أمس. أسارع إلى قطع أكبر كمية من أغصان النعنع. وأضعها مع السكين على غرانيت المجلى. ألتفت، وإذا بصوفي شبه عارية أمامي بشورتها الجينز القصير إلى أعلى فخذيها والمشقق على طرفي كيلوتها. وبقماشة جينز مورّدة مقصوصة ومخاطة لتصلح حمالة صدر تكاد لا تخفي حلمتَي ثدييها البارزين على شكل ردفَي مؤخرتها. أحضنها وأقبّلها. وأشير إلى النعنع معجباً بإنجازي ما ينبغي عمله. تضحك وتقرصني مَن حلمتي بِرِقّة. تنظر إلى وجهي، وتمرّر كفيها على خديّ، تقبلني، وتقول:

– إذا تودّ، يوجد في الخزانة فوق مغسلة الحمام كلّ ما تحتاج لتحلق ذقنك.

أفتح الخزانة أرى معجون حلاقة، أتأكّد مِن صلاحيته، لم يزل صالحاً لشهرين قادمين. تذكرني ماكينة الحلاقة برأسها المتحرّك بواحدة اقتنيتُها أيام شبابي مع دخول هذا النوع المتطور إلى الأسواق الدمشقية. أبحث عن الشفرات الإضافية لم يزل هناك ثلاث، أنتزع واحدة، وأركّبها على الماكينة. أبلِّل الفرشاة بماء الحنفية، أعصر عليها قليلاً مِن المعجون وأرغي وجهي وعنقي بسرعة. وأحْلق.

أجلس إلى طاولة الطعام قبالة صوفي. أسألها بعد الانتهاء مِن تناول الفطور:

– هل عدّة الحلاقة لأخيك؟

– صحيح. عادل كان يعيش هنا قبل سفره النهائي إلى ألمانيا.

– لماذا سافر؟

– لكي يعمل.

– حسبته يتهرب مِن الجيش كما يفعل أولاد الأثرياء هذه الأيام.

– عادل أكبر مني. ونحن شقيقان وحيدان لأب طبيب وأم صيدلية. وربما بسبب قرْبه مِن أمّي ومرافقتها شبه الدائمة إلى صيدليتها قرّر منذ صغره أن يصبح مخترعاً للأدوية.

بعد نجاحه في البكالوريا، ذهب إلى ألمانيا ونجح في أن يكون ما يريد. بعد إلحاح والديّ، عاد إلى سوريا وساعداه على فتح معمل

لصنع الأدوية في الغوطة الشرقية.

تنظر إليّ بأسى، تُشعل سيجارة وتُكمل:

– ربما تتوقّع ماذا حصل للمعمل مِن قِبَلِ الإرهابيين بعْد اندلاع الحرب؟.

– استولوا عليه وربما أحرقوه كما فعلوا في كثير مِن المعامل المشابهة.

– لا، لم يحرقوه. أخذوا الأدوية، وباعوا الأجهزة المتطورة لأحد الوسطاء لدى المهربين بين حلب وتركيا.

– وماذا كانت ردّة فعله؟

– عندما أخبره أحد حراس المعمل مِن سكان الغوطة بعملية السرقة، بكى مثل طفل تنتزع منه لعبة يحبها. لكن، نسي ذلك بسرعة. وراح، في البداية، يتسلى بالعمل مع أمّي في الصيدلية. ثمّ قرّر أن يأتي إلى اللاذقية باعتبار مدينتها أكثر بعداً عن الحرب. واختار هذه الضاحية المجهولة لقربها مِن المدينة، ولعدم استهدافِها حتى الآن بصواريخ الإرهابيين. غير أنه لم يستطع أن ينشئ معملاً جديداً هنا. فقرّر السفر إلى ألمانيا. وعلى ما يبدو وجد منذ أربع سنوات عملاً مناسباً فيها.

أشعِلُ سيجارتي، وأسألها على سبيل الفضول وتغيير الموضوع

تدريجياً:

- على الرغم مِن انشغاله في الأمور العلمية والعملية كان عادل يجد وقتاً للاهتمام بالشِّعر؟

تنظر إليّ بلوم وبابتسامة إعجاب معاً، وتقول بثقة:

- عائلتنا كلها تهتم بالشِّعر. وبمختلف الآداب والفنون.

أبتسم لها مُعجَباً بما تقول. فتُكمِل لترضي غروري ربما:

- حين سألته عن قصيدتك، ضحك، وقال: رأيتها عند إحدى الصديقات، رباب إذا تذكرينها. قرأتها، فوجدتها تعبّر عن أحوالنا نحن العرب. فكل مكروه نُقرِنه بالجنس، وربما نحن أكثر الشعوب نستعمل الجنس للشتائم، أو مصدراً للاعتداء بسبب تاريخنا، ونسمّي الاعتداء علينا اغتصاباً واغتصابنا للآخرين فتحاً. وأكثر ما أعجبني في هذه القصيدة هو السخرية مِن مفهوم الاغتصاب، وضرورة التحرُّر مِن آثاره السلبية، والانطلاق في الحياة مِن جديد. يومَها كنت أعزم رباب على عيد ميلادي، فسألتْنِي: ما تودّ أن أجلب لكِ هدية؟ لم أردْ أن أحرجَها برفض هديتها لسوء أحوالها المالية، فأشرتُ إلى القصيدة. وأخذ الحديث عن القصيدة وشاعرها بسبب سكْرِه وشطحاتِه على الفيس بوك وقتاً كبيراً بين الأصدقاء والصديقات في تلك الحفلة. وحين سألته عن اسم الشاعر. ضحك وقال: لا أذكر

بالضبط. ربما اسمه: نديم.

أضحك بلا تردّد لذكر الفيس بوك، وأذكّرها:

– ربما هذه بداية تعرّفكِ عليّ؟.

تبتسم برضى لِنَقْلِ الحديث حول علاقتنا، وتردّ بغنج:

– تقريباً.

أتفرّج على صوفي، وما ترتديه مِن ثياب مُفرحة ومُغرية، ونادرة في سوريا ولاسيما هذه الأيام. فأسألها:

– عادل مَن يجلب لك هذه الملابس الجميلة؟

تضحك، وتردّ بسرعة:

– لا صديقاته الألمانيات. مازحتُه مرة، وأنّبته: ألا تخجل مِن هذه الهدايا؟ ضحك، وقال: لستُ أنا مَن يختارها. أعطي مقاساتك التي كتبتِها لي لإحدى الصديقات المقرّبات. وأقول لها: اشتري لأختي شيئاً مفرحاً. وآتيك بها مِن غير أن أراها. أضحك، وأقول له: ممتاز. إذا كان الأمر كذلك، فهذا ما أريده.

تبتسم بشيء مِن الحرج، وتستدرك:

– طبعاً ليست كلها على هذا النحو الذي أرتديه الآن لك وحدك.

أضحك، وأردّ مِن غير تفكير:

– طبعاً، أعرف أنّك لا ترتدينها لغيري.

تبتسم مندهشة مِن غيرتي غير المتوقعة مع أنها مُبَطَّنة. تطول ابتسامتها ربما باستنتاجها الذي أفكّر به حالياً، أنّني أرغب بالاستحواذ عليها لوحدي. فتُرسِل لي قبلة مع الهواء.

أقبّل باطنَ يَدِي، وأنفخها باتجاهها. وأقول متحسراً:

– لو يقوم الآن.

تتصنّع الحرَد، تشبك ذراعيها فوق صدرها. وتنظر إلى الطاولة أمامها، ترى غصن نعنع مِن بقايا السلَطة، تتناوله وترميني به مبتسمةً مشرقةَ العينين. أتناول الغصن مِن طرف الطاولة التي وصل إليها أمامي، أضعه في فمي. ألوكُه، وأنا أنظر إليها بتشهٍّ. تهزّ رأسها إلى الأمام، وهي تهمس:

– تعال.

أسرع إليها. ورغبتي أن أحكّ قضيبي بين ثدييها. أُرجِع كرسيها إلى الوراء، تساعدني على حرفه إلى اليسار ليترك مساحة مُريحة لجسدينا بعيداً عن الطاولة. أقف أمامها، أضمّ شعرها بكلتا يدي. أنحني وآخذ شفتيها بشفتي. تمدّ يدها إلى خصيتي تداعبهما. أمسكها مِن كتفيها، أوقِفُها، وأنهال قُبَلاً متلاحقة على وجهها، عنقها، كتفيها، وصدرها، وأعلى ثدييها. تحكّ قضيبي بأظافرها. أجلسها على الكرسي. أخلع كيلوتي، أمسك قضيبي، وألامس به شفتيها، تنقره

بلسانها، تلحسه، يتمدّد قليلاً، أدخله في فمها، أخرجه. أدخله، أخرجه. ينتصب. أحاول إخراج ثدييها من حمالة صدرها، يخرجان بسهولة. أمسك بطرَفَي الكرسي، وأقترب، يلامس قضيبي ثدييها، أحركّه بعشوائية فوقهما. أطلب مِن صوفي أن تضمه بهما، تفعل. أحكّه بهما جيئة وذهاباً، تتلاحق أنفاسي. ترخي صوفي ثدييها، تبعد يديّ عن الكرسي، تقف، تقبلني على شفتي، وتقول:

– هيا إلى التخت.

تخطو بسرعة. أتبعها. تخلع شورتها وكيلوتها. تستلقي على ظهرها. أستلقي فوقها. أدفعه، فيدخل في فرجها. أسحبه وأمدّه. تحرّك حوضها جيئة وذهاباً، أتركه يتناغم مع حركتها، تتأوّه، أتأوّه، أضغطه بأقصى ما يمكن داخلها، وأقذف. أسترخي إلى جانبها، أقبلها على كتفها. وأنهض لأناولها فوطة، آخذ منشفة لأتحمّم. وأعود لأستلقي إلى جانبها.

نستيقظ على رنين موبايل صوفي. تمسكه وتنظر إليه، تلتفت إليّ:

– هي ماما. أعطني مِن الخزانة شيئاً أرتديه فربما ترغب برؤيتي على السكايب.

تفتح خطّ الهاتف:

– أهلا، ماما. كيفك؟

وكيف البابا؟

لا، لا تقلقي أنا منيحة، وبأحسن حالاتي.

حاضر.

باي.

تغلق الخط. وتخبرني مِن غير أن أسالها:

- قلقة لأنّني لم أكلّمْها منذ التقيتك. منيح أنّها تتكلم مِن الصيدلية.

أضحك، وأنا أعيد البلوزة إلى مكانها، وأسألها:

- هل أخرِج لك منشفة؟

- يا ليت.

أناولها منشفتين، تُعيد لي الصغيرة، وتقول:

- لن أغسل شَعري اليوم.

تمشي مِن الغرفة إلى الحمام. أتبعها، ولكن إلى الصالون. أرى أطباقَ الفطور وصحونَه الفارغة على حالها. آخذها إلى المطبخ وأضعها في المجلى. أُنزِل ركوة القهوة مِن الخزانة، أملأ نصفها بالماء، أضع ملعقتين كبيرتين مِن البُنّ وأحرّكهما. أشعل الغاز وأضع الركوة على نار خفيفة. أنظر إلى باب الحديقة، أرى أشعة الشمس مبتعدة عن المصطبة. أرتدي الشحاطة وأخرج إلى الحديقة.

أنتبه هذه المرة إلى أنّ المصطبةَ جزءٌ مِن رصيفٍ بعرْض مترين

على امتداد جدار الشقة. أتمشّى على الرصيف إلى آخره مستمتعاً بقربي مِن الأشجار وحركة الطيور على بعضها. أعود إلى المطبخ أنظر إلى القهوة أراها تغلي. أطفئ الغاز. أتناول فنجانين مِن الخزانة. أملأهما بالقهوة. وأحملهما إلى الصالون. أضعهما على الطاولة الصغيرة، وأجلس على الصوفا.

أشرب القهوة، وأشعل سيجارة. أشعر بقليل مِن التعب. أضع السيجارة على المنفضة، ورأسي وسط الصوفا، وأرفع رجلي على مسندها. أستسلم لاسترخائي، وأغفو.

أستيقظ على شخير صوفي خلف رأسي. أنزل رجلي عن المسند، وأجلس. أنظر إلى صوفي كيف اتخذت نفس وضعيّتي على الصوفا، ولكن باتجاه معاكس، ونامت ببلوزتها الصفراء وشورتها السماوي الطويل، نسبياً، إلى فوق ركبتيها.

أشعل سيجارة، وأهجس: لا تبدو صوفي مكتفية بإشباع شهوتها الجنسية فقط. إنها مُعجَبة بي، بما سمعته عني، وقرأته لي قبل أن تراني. ويتطوّر هذا الإعجاب إلى حبّ كما تُوحي تصرفاتها وكلماتها. يشجعها على ذلك انسجامُنا في ممارسة الجنس، والأهم مِن ذلك انسجامنا في تفاصيل حياتنا اليومية حتى الآن. لكن هذا قد لا يكفي بالنسبة لي. هل يكون جسد صوفي غير قابل للنفاد فلا

أضجر منه؟ وماذا عن ضجرِها من جسدي؟ على أية حال ما تزال كلُّ هذه التخوفات مبكرة، وهي دليل رغبة بالاستمرار. و حرّية صوفي تبدو مطلقة في حياتها الشخصية، ولا يبدو أنها ستُلزمني بشيء يزعزع استقلاليتي، ومزاجيتي في العيش والكتابة. يعلو شخيرها أكثر، فيقطع هواجسي، ويقلقني عليها، فأناديها بصوت مرتفع:

- صوفي.

- أهْ.

تفتح عينيها، وتنظر إلي بقلق وعتاب. أمسح شعرها، وأخبرها بتودّد:

- كنت تشخرين بصوت مرتفع، فخفتُ عليك.

تنزل رجليها وتجلس. تتناول محرمة مِن علبة على الطاولة، وتمخط. تضع المحرمة في المنفضة، تبتسم، وتوضح لي:

- آسفة. أنا أشخر بين الحين والآخر. وغالباً بسبب مخطة عالقة.

- ولا يهمك. في المرة القادمة سأحاول إيقاظك بلطف وهدوء.

- تسلم لي. يا لطيف. يا هادئ.

أحضن كتفها بذراعي، وأسألها:

- ما رأيك بتجديد القهوة؟

تحمل صينية القهوة، وتذهب إلى المطبخ. أعود إلى وضعية

استرخائي السابقة على الصوفا. أسترجع علاقتينا الجنسيتين هذا الصباح. أتذكّر حرصها على استمنائي داخل رحمها، مستلقية على ظهرها، وبقاءها على هذه الحال حتى ذهابي إلى الحمام. وكيف استدرجتني للاستمناء داخل رحمها وهي مستلقية على جنبها ليلة البارحة، وكلتا الوضعيتين هما الأوفر حظاً لحصول الحمْل. أبتسم لهذه الفكرة، ولا آخذها على محمل الجدّ. أسمعها تنادي من المطبخ. أهرع إليها:

– هل حصل شيء؟

– لا، أودّ أن أسألك إن تحبّ أن نجلس في الحديقة؟

– أحبّ.

– على طرف الباب وراء البراد، طاولة وكرسيان مطويان، أخرجْهما وافتحهما بينما أسكب القهوة.

أفتش عن الشحاطة، ألبسها. أفتح باب الحديقة، تبدو الطاولة ثقيلة وتحتاج ليدين اثنتين لرفعها، لذلك أخرجها أولاً، أحملها إلى منتصف الرصيف، وأفتحها. وأعود مِن أجل الكرسيين. تسبقني صوفي بفنجانَي القهوة، وتضعهما على الطاولة. أناولها كرسياً، تفتحه، وتجلس عليه. أفتح الكرسي، وقبل أن أجلس، تقول:

– الدخان.

أمشي إلى غرفة النوم، أرتدي القميص والبنطال خشية الحشرات، أتناول المنفضة وعلبة دخان وقداحة صغيرة مِن على الطاولة الصغيرة، وأعود إلى الحديقة. تستقبلني صوفي بابتسامتها المُحبة وعينيها المشرقتين شهوة وحيوية. أطيّر لها عدّة قُبَل في الهواء قَبْلَ وصولي إلى الطاولة، تفتح شفتيها لالتقاطها ضاحكة. أناولها الدخان وأجلس. أقرّب فنجان القهوة. وآخذ رشفة. تشعل سيجارة، تدفع الدخان والقداحة صوبي، وتسألني:

- ماذا تقترح للغداء؟

أشعل سيجارة، وأفكّر:

هل تطبخين عادة؟

- طبعاً.

- لكن صارت الساعة حوالي السادسة.

- تعلمت هنا طبخ البرغل ببندورة إذا تحبّ، ولا يحتاج إلى وقت طويل.

- أحبّ هذه الأكلة، طيبة وإلى جانبها البصل والفليفلة الخضراء. لكن، اتركيها إلى يوم آخر.

- مثلما تودّ. في الثلاجة شرحات فرّوج، يمكنني حمسها بسرعة أيضاً؟

يخطر لي أن نأكل الفروج، ولكن في مكان آخر. رغبة بإراحة صوفي من الطبخ، ورغبة بالتنزه معها فيما يتوفّر مِن الأماكن في هذه الضاحية الرائقة:

- أنا عازمك اليوم.

تنشرح ملامحها علامة رضى وسرور باقتراحي، تهزّ رأسها بالقبول، وتسألني:

- إلى أين؟

- إلى مطعم التنور.

تضحك، وتصرخ:

- رائع.

- رأيت فساتين جميلة في الخزانة. وأريدكِ أن ترتدي واحداً.

- كلها قصيرة.

- ولَوْ...

- ظننتكَ تغار عليّ.

قالت جملتها بغصة، واستدركت لكيلا تحرجني بشيء لم أقله لها صراحة:

- أحبّك أن تغار عليّ.

وتضحك ساخرة مِن خيبتها أنها لم تستطع إخفاء ما تريد التعبير

عنه.

أضحك. وأحاول إخراجَها مما هي فيه بقول ما تعرفه:

– حتى لو كنتُ أغار عليك لا أرى ضرورة لإخفاء جمالك. فالناس هنا لا تفرض زياً محدداً. ولا أحد يتحرّش بالمرأة إذا ما رأى شيئاً مِن فخذيها. هم معتادون على رؤية ما يتوفّر مِن عُرْيٍ النساء على شاطئ البحر.

– لا أرى زميلاتي يرتدين شيئاً قصيراً. يجوز بعض الصبايا الصغيرات.

– وأنتِ ما زلتِ صبية. ومطعم التنور معظم رواده مِن الشباب والصبايا والعرسان الجدد.

أراحها أن يتحوّل النقاش مِن الغيرة إلى العمر، فلم تجد حرجاً بقول ما تشعر به:

– طبعاً، أنا صبية وحلوة وتليق عليّ أحلى الفساتين.

أضحك، وأنا أهزّ رأسي موافقاً. تقف بنشاط. تتمطى إلى الخلف، تنظر إليّ بشغف، وتصرخ:

– أحبّك.

أضحك مبسوطاً بما تقول. وحين لا أقول شيئاً، تشير بسبابتها نحوي، وتسألني بدلع:

- وأنت؟

- أنا أيضاً أحبّني.

- غليظ.

تقولها ممطوطة بينما تقترب منّي. تمسك رأسي بين كفيها تقبّلني على شفتي، وتتركني جالساً، لترتدي فستانها.

أنظر إلى سيجارتي، تكاد تنطفئ مِن غير أن أدخّن منها. أطفئها، وأشعل غيرها. تعجبني هذه المرأة في تلقّفها لأية فرصة للحياة بلا أيّ حساب أو خوف تربَّينا عليهما في البيت والعائلة أو حتى في الشارع لكي نتحاشى عواقب السعادة التي نشتهي عَيْشَها، فنعيش الخوف والحرمان وننسى السعادة. إنها هديّة، ولو متأخّرة لمُعاناتي وتعبي في فهم الحياة إنْ كان مِن تجاربي الفاشلة في معظمها أو مِن قراءتي للكتب وتفكيري بها. إنها تُجاريني في كلّ شيء وتتفوّق عليّ بتحرّرها مِن الهواجس وبصراحتها في قول ما تريد وفعله. إنها تترك نفسها تستمتع بي ومعي بينما أكاد لا أترك شيئاً إلا وأعكّره بقلقي وشكوكي. وما هو رائع حقاً أنها تعرّيني أمام نفسي، وتكشف تناقضاتي لي، وتغسلني مما علق بي من خداع هذا المجتمع ونفاقه وقيوده بفلسفتها الوجودية التي تعيشها من غير أن تقولها أو تناقشها معي. وما أمدح نفسي به أنّني مرتاح لهذه التعرية بيني وبين وذاتي

مِن غير أن أُتْعِبَ صوفي بها، وأنّ صوفي مرتاحة لتفَهُّمي سلوكها وتصرفاتها وتشجيعها على عدم مراعاتها لنكد الآخرين، بلا عقَدِ الرجل وامتيازاته التافهة والوهمية حتى في علاقتنا الجنسية. أسمع صوتها مِن المطبخ. أسرع إليه. أراها بفستان بنيّ فاتح وقصير حقاً لا يكاد يغطي نصف ثدييها وبالكاد يصل إلى منتصف فخذيها. لكنها تعاني من إغلاق سحابه الخلفي. تراني فتشكو إليّ:

- أجرّبه للمرّة الأولى.

أقترب منها. تدير ظهرها. أمسك طَرَفَي السحاب مِن الأعلى بيدي اليسرى، أحرّك بكْلتَه إلى الأسفل ثمّ إلى الأعلى فتنساب إلى مستقرّها في مُنتصَف ظهرها. تدور به أمامي، وتسألني:

- ما رأيك؟

أبتسم بإعجاب، وأقول لها:

- جميل ومناسب جداً.

أرجع إلى الحديقة. أحضر الفنجانين والمنفضة إلى المطبخ. أترك الطاولة والكرسيين لرغبتي بمعاودة الجلوس عليهما. أجلس على الكرسي قرب الباب. تأتي صوفي حافية، بشعرها الشلال وبعينيها المضيئتين وسط كحلهما البني، وعلى شفتيها قليل مِن الروج البنيّ اللامع. تضع حقيبة يدها البيضاء على الطاولة أمامي. تتجاوزني

وتفتح خزانة الأحذية لصْق الباب. تناولني حذائي، تجلس على الكرسي قبالتي، وترتدي كلاشاً أبيض. وقبل أن نخرج تتذكّر أن تحضر مظلتها البيضاء.

نأخذ الطريق المعاكس للبحر، تستقبلنا نسائمُ الجبال مِن أمامنا، وتدفعنا حرارة الشمس الغاربة مِن خلفنا. تُميل صوفي مظلتها إلى الخلف لتقي ما ينكشف مِن ظهرها، ونتمشّى على مهلنا فوق رصيف حارتها. يلفت جَمالُها أنظار كل مَن يراها وتراها مِن داخلِ السيارات أو المارّة أو الجالسات والجالسين أمام أبواب الدكاكين. ولا ترى حرجاً بمبادلة الابتسام مع كل من يبتسم أو تبتسم لها،. أسألها على سبيل المداعبة:

- هل تعرفين كلّ هؤلاء؟.

- لا، لا أعرف.

- لماذا تتبادلون هذه الابتسامات؟

تنظر إليّ بتعالٍ، رافعةً كتفها المحاذية لي بحركة متداوَلة في مثل هذه الحالات، وتقول:

- باعتباري قصيدة جميلة.

أضحك، وأقول لها مشجعاً:

- فعلاً، أنت قصيدة جميلة جداً.

نعبُر حارة صوفي، ونفرقُ إلى اليسار، نتجاوز البنايات التي تشكل واجهة الحارة على الشارع الذي يصل إلى القرى المجاورة. نعبر درباً منحدراً إلى الأراضي الزراعية خارج الضاحية. نتوقف على طرفه، وننزل درجاً مرصوفاً بالحصى والحجارة البحرية يوصل إلى أرض مستوية حوالي مئة متر باتجاه البحر، ومئتي متر على امتداد الشارع حيث تنتهي بمنزل قروي يستثمر أحد أفراده هذه الأرض كمطعم صيفي يقدّم الأغذية الحيوية.

يتكوّن هذا المطعم من تنّور قريب مِن المنزل وطاولات وكراس خشبية متنوعة الأشكال، تتوزع تحت الأشجار. نرى عدداً لابأس به مِن الشباب والصبايا قد سَبَقَنا إلى هنا، وبعضهم بدأ يتناول المعجنات المشوية المغطاة بالفليفلة الحمراء أو الزعتر أو الجبنة مع الماء والعصائر الطبيعية وهناك مَن يشرب البيرة. تُبدي صوفي رغبتها بهذه المعجنات وهي تتنشق روائحها المنبعثة مِن التنور متلذّذة. نختار طاولة متطرفة لا تحجبها عن رؤية البحر أية طاولة أخرى. أمسك يدها ونتمشى على التراب المرصوص. نسمع قبل الوصول إلى طاولتنا شاباً يسأل رفيقته، وهو يتفرّج على صوفي:

- هل رأيت فنجان نسكافية يمشي؟

فتجيبه صديقته ساخرة:

- هل رأيت زجاجة ماء تمشي؟

أنظر إلى بلوزتي السماوية، أضحك، وأسأل صوفي:

- هل سمعتِ القصيدة؟

تضحك، وتقول بلا مبالاة:

- سمعت.

يثيرنا شكل الطاولة المؤلَّفة مِن ثلاث قطع خشبية متلاصقة على شكل قلب. وليس حولها سوى مقعد واحد يتسع لشخصين مثبت في الجهة المقابلة للبحر. نجلس متجاورين، أضع ذراعي على كتفها فتسند رأسها على كتفي، وننظر إلى المدى أمامنا كيف تتدرّج ألوانه الخضراء لتتصل بألوان البحر الفضية والسماوية والوردية والبرتقالية. أنظرُ إلى يميني أشاهد بنايات حارة صوفي المرخَّمة، تشكّل مستقيماً متقطّعاً يتجه إلى الغرب، وينحني إلى الجنوب بِسُورٍ مِن أشجار السرو المتلاصقة فوق جدار استنادي، أقول لصوفي:

- انظري إلى السرو. كنّا هناك قَبْلَ قليل.

تبتسم، ولا تعلِّق، مستمتعة باسترخائها على كتفي. وبما تراه مِن لوحة طبيعية يُعيدُ تلوينَها الخالِقُ كلَّ حين. أنتبه أنّ ثمة شقة أخرى فوق شقة صوفي، فأسألها:

- مَن يسكن فوقك؟

– عائلة عراقية، سافر معظم أفرادها. ولم يبْق سوى الزوج والزوجة وابنتهما.

– لم أسمع لهم صوتاً، ولا أرى لهم ضوءً.

– راحوا الأسبوع الماضي إلى لبنان في زيارة لرؤية الأولاد والأحفاد.

تأتي النادلة، تضع المنفضة والماء والمحارم على الطاولة وترحّب بنا:

– أهلاً وسهلاً.

نبتسم لها، ونعدّل مِن جلستنا. تسارع صوفي إلى الطلب بمبالغتها المعتادة:

– مُعجّنات مِن كافة الأنواع.

– العدد.

– واحدة مِن كلّ نوع.

تنبّهها النادلة:

– لدينا ثلاثة أنواع فقط!

– يكفيني الآن.

تبتسم النادلة، وتلتفت إليّ:

– والأستاذ؟

– هل لديكم دجاجة بلدية حيّة؟

تضحك مِن غرابة طلبي. تتذكّر شيئاً، وتقول:

– لدينا شلفونان حيّان.

– اشويهما لنا.

– تكرم أستاذ. هل ترغبان بشرْب شيء؟.

أنظر إلى صوفي، فتجيبها:

– لا، شكراً. يكفي الماء.

تغادر النادلة، فتسألني صوفي:

– الشلفون، هو الديك الشبّ الصغير، ما؟

– إي، هو.

– هَمْمْمْمْمْمْ.

أضحك، وأقول لها:

– الحمد لله، لستُ شابّاً صغيراً.

تقهقه، وتنظر إليّ معجبةً، مواسيةً، وتقول:

– أنت أبو الشلافين.

نقهقه معاً. ولا نعرف ماذا نقول؟.

يأتي النادل بالمعجنات على صينية مغطاة بالأوراق، يُرحب بنا، ويغادر. تسارع صوفي إلى التهام محمرة الفليفلة كلها. تجدني لا آكل. تلفّ صفيحة الجبنة، وتقدّمها لي:

- أنت تحبّ الجبنة.

آخذها منها، وألتهمها ضاحكاً. تلتهم صوفي صفيحة الزعتر. تتذكرني، فتقدّم لي ما تبقى في يدها، وهي تشير لي راجية ألا آخذه. فلا آخذه. نضحك. أشرب قليلاً مِن الماء، وتشرب صوفي. تُخرِج الدخان والقداحة مِن حقيبتها. ندخّن ونحن نشاهد الشمس تتهادى على مياه البحر نائمة. تُضاء اللمبات حولنا وفوقنا. أتسلّى باكتشاف النجوم التي تبدأ بالظهور في قبة السماء المظلمة، وأشير إليها. تراقب صوفي هذه اللعبة الغارقة في القدم، تعجبها، و تبدأ باكتشاف نجومها وتشير إليها.

نضجر، ونشعر بالجوع من جديد.

يضع النادل طَبَقاً مِن الفخار أمامَ صوفي وطبقاً مثله أمامي، مع شوكة وسكين لكلِّ طَبَق. يُخرِج الديكين المشويين مِن الأوراق الواقية، يضع واحداً على طبق صوفي والآخر على طبقي. يبدو اللحم رغم طزاجته هشاً ويذوب في الفم بسبب مهارة تتبيله وشيّه. نستمتع بالأكل، فنلتهي به صامتين. لا تمرّ خمس دقائق حتى نكون قد انتهينا مِن وجبتنا المركّبة كغداء وعشاء معاً. أحاسب النادلة، ونعود بخطى بطيئة على ذات الرصيف الذي جئنا منه، نستمتع بنسائم المساء الباردة وبالابتسامات التي تتبادلها صوفي مع

المعجبين بزيها. أرى كشكاً يبيع الدخان، نتوقف أمامه، وأشتري علبتين، تضعهما صوفي في حقيبتها. أرى دكاناً لبيع الألبسة الداخلية، أشير إلى صوفي أن ندخله، تختار لي عدّة كيلوتات قطنية غامقة الألوان، أدفع ثمنها، ونخرج. نتابع المشي، حتى نصل إلى شقتها.

تضع حقيبتها على الطاولة، أضع الكيلوتات جنبها. أمسكها مِن خصرها، أحضنها، وأسألها:

- ما رأيك أن نشرب كأسين مِن الويسكي في الحديقة؟.

تُقبلني على شفتيّ، أبادلها القبْلة. تبتسم وتهمس:

- نشرب.

أمشي إلى الصالون، أُحْضر زجاجة الويسكي مِن جانب الصوفا. أقف على المصطبة أبحث عن اللمبات التي تضيء الحديقة بهذا النور الخافت فلا أرى سوى القمر في السماء. أرى صوفي في نهاية الرصيف واقفةً تنظر إليه مدهوشةً. أضع الزجاجة على الطاولة، وأمشي إليها، تنتبه إليّ، تلفّ ذراعي حول خصرها، وتقول:

- انظرْ ما أجمله.

- ما يجعله أكثر جمالاً أنّنا ننظر إليه مِن على هذه الأرض الرائعة.

تبتسم، وتقول:

- ما لم أستطع تعلّمه مِن خلال دراستي للفلسفة هو كيف أفسّر مثل هذه اللحظات المدهشة؟.

- ربما لأنّ الفلسفة تهتم بتفسير الموت، وما وراء الطبيعة، أكثر مِن تفكيرها بما نعيش.

- صحيح، ولذلك لم أعد متحمّسة لها مثل سنوات مراهقتي. أقصد لم أعد آخذ كلام الفلاسفة ومناهجهم مِن غير نقد. صرت انتقائية بما يُعزّز رؤيتي للوجود.

- هذا هو الصحيح.

نصمت للحظات، مكتفيين بالتطلّع إلى القمر. تشدّ يدي على خصرها، أدور باتجاهها، تعانقني، تضع رأسها على صدري، وتجهش بالبكاء. أدخل أصابعي بين خصل شعرها، أداعبها بهدوء، وأتركها تستغرق في بكاء مُرّ لا يكاد ينتهي. تنظر إليّ، والدموع تُغرِق وجهها. أبتسم لها متفهماً. تبتسم. أدغدغ خصرها، وأقول لها:

- هيّا إلى الويسكي.

تضحك كطفلة أسامحها على خطأ كانت تبكي خوف عقابه، وتُجلِسُني على الكرسي:

- دقيقة وأعود بالثلج والكأسين.

أعرف أنها تريد الانفراد بنفسها قليلاً، للتخلص مِن حالتها، فأسترخي

في مكاني مِن غير أن اقول لها شيئاً. أقول لنفسي: فرْط سعادتها لا يقلقها مثلي، وإنما يعمل مثل مضاد حيوي يُصارع جراثيم الحزن والضجر المتراكِمَين، وقد انفقأت دمّلة الألم قبل قليل على صدري، وما أجمل ما أفرزتْه مِن دموع.

تظهر صوفي باسمة مشرقة بفستانها الذي رسم جسدها ورشاقته بلونه البني. أستمتع بمشاهدة ثدييها، وهي تنحني لتضع الصينية على الطاولة. هذه المرة لم تنس الدخان والمنفضة، ولكنّ الكأسين أصغر سعة مِن البارحة. أمسك كأساً أضع فيه ثلاث قطع مِن الثلج، وأسكب الويسكي عليها حتى تغيب تحته. وأناوله لصوفي. أسكب لِنَفْسِي كأساً، أرفعه أمامها، وأقول بصوت مرتفع:

– بصحة نجمة المساء.

تضحك، وتقول فَرِحة:

– بصحة قمرها.

تشرب كأسها دفعة واحدة، وتنظر إليّ ضاحكةً، دامعة مِن حدّته. لا أودّ أن أعكّر مزاجها بأي شيء، أنظر إليها بابتسامة رضى، وأكرع كأسي كله. أشير لها أن تقرّب كأسها لأملأه من جديد. تتناوله، ترشف منه، تضعه أمامها، وتشعل سيجارة. أملأ كأسي، وأشعل سيجارة. تسألني:

- هل نكثر مِن الجنس؟

- طالما يستجيب جسدانا له، ونستمتع به، لِمَ لا؟

تأخذ رشفة كبيرة مِن كأسها، وتقول ضاحكة:

- مِن جهتي لا مانع لديّ.

أشرب نصف كأسي، وأقول لها:

- أنا متفاجئ مِن نفسي، وأتمنى أن أستمرّ على نشاطي سنين طويلة.

تضحك، وتسألني:

- كم عمرك؟

- أدخل في الخامسة والأربعين. وأنت؟

- أنا تجاوزت التاسعة والعشرين مِن كم شهر.

أبتسم بثقة، وأقول مداعباً:

- ما زلنا شابين.

تبتسم، وتنظر إليّ مُعجَبةً بما أقول. ترفع كأسها أمامي:

- بصحة الشباب.

أقرع كأسها ضاحكاً:

- بصحتنا.

نكرع كأسينا حتى الثمالة، ونطرقهما معاً على الطاولة. تتناثر

ضحكاتنا في الحديقة. أوزّع ما تبقى مِن ثلج على كأسينا، وأملأهما بالويسكي. أناولها كأسها وأقرعه. نشعل سيجارتينا صامتَين، هادئين، منشرحين. تضع صوفي رجلاً على أخرى، وتغمرني بعينيها الحنونتين، الشبقتين. أرفع لها كأسي، ترفع كأسها، نأخذ رشفتين صغيرتين. نضع كأسينا على الطاولة، نطفئ سيجارتينا، وننهض. أعانقها، أستمتع باحتضانها داخل فستانها، نتبادل عدّة قبلات مبتسمة. أمسك يدها، وندخل إلى الشقة. نخلع حذاءينا أمام المطبخ، ونمشي حافيين إلى غرفة النوم. تخلع فستانها وكيلوتها وتستلقي على التخت. أخلع بلوزتي وبنطالي وكيلوتي وأستلقي إلى جانبها. أميل على جنبي، وأمدّ ذراعي لها، تقترب مني حتى تضع جانب رأسها على كتفي، أضمّها حتى أشعر بثدييها يملآن صدري. تُميل وجهَها إلى أعلى، أميل بوجهي، وأضع شفتَيّ على شفتيها. ويدي على مؤخرتها. ترفع رجلها على فخذي. وتمدّ يدَها إلى خصيتَي وقضيبِي. تتعارك شفاهنا، يتراقص لسانانا، أطوي ذراعي تحتها على شعرها. وأمرّر أصابع اليد الأخرى على خصرها و ظهرها وكتفيها بِنُعومة. تداعب خصيتي. تداعب قصيبي، ينتصب، تضعه في فتحة مهبلها. تسحب يدها، وتدخلها تحت إبطي، وتحضن أعلى ظهري. أحرّك حوضي بهدوء إلى الأمام والخلف. يتبلل فرجها. ينزلق قضيبي إلى

رحمها. تحرّك حوضها جيئة وذهاباً. نتبادل تحريك حوضينا إلى الأمام، إلى الخلف. آه، آه. آخ، آخ. تضمنّي بشدة، كما لو أنّها تريد أن تتغلل داخلي. اضمها إليّ وأنا أسحب قضيبي وأدفعه داخل فرجها. أسحبه وأدفعه. أسرع في سحبه ودفعه. تصرخ، أصرخ. ترتخي بين ذراعَي. ترتخي ذراعَي. تستلقي على ظهرها، أستلقي على ظهري، وننام.

اليوم الثالث

أفيق. أشعر ببهجة ثرية مِن ألْفتِي لتخْت صوفي. أنظر إليها عارية تستلقي إلى جانبي، وتشخر. أقترب منها، ألامس قضيبي بفخذها، أمرّر أصابعي على بطنها، ما بين ثدييها، حول حلمتيها. تفتح عينيها، وتنظر إليّ مبتسمة، وتقول بغنج:

– نعسانة.

أخْرِج محرمة مِن بين وِسادتَينا، أضعها على أنفها، وأقول لها:

– امخطي.

ترفع رأسها قليلاً، تمخط، وتُرخي رأسها على الوسادة، أمسح أرنبة أنفها وشفتها العليا، وأتركها تتابع نومها. أنهض إلى الحمام. أضغط على سطْل القمامة. ألقي المحرمة. وأتبوّل. أجدُها فرصة لأجرّب طقسي الصباحي المعتاد عليه في شقتي. أمشي إلى المطبخ. أضع ركوة القهوة على الغاز. أخرج إلى الحديقة، وأدخِل ما تركناه على الطاولة ليلة أمس، وأضَعه في المَجْلى. أنظر إلى زجاجة الويسكي، أنبسط لأنها لم تزل تحتوي ما يكفي للسهرة مع صوفي، فأضعها على زاوية الغرانيت. أنزِل كوباً مِن الخزانة، أضعه على الصينية،

وأضع إلى جانبه المنفضة والركوة. أمشي إلى الصالون، أضع الصينية على الطاولة الصغيرة، وأذهب إلى غرفة النوم. صُوفي لم تزل نائمة، لكنها لا تشخر. أفتح حقيبتها، وأخرِج علبة الدخان الثانية. أجلس على الصوفا، وأسكب القهوة. أتذكّر الانترنيت والفيس بوك. أحاول الدخول إليهما مِن موبايلي، لا أنجح. لا أشعر بحاجة مُلحّة لهما. أشعل سيجارة، وأنساهما. أرشف القهوة، وأصغي إلى أصوات العصافير في الحديقة. تشتغل عضلة خواطري وأعصابها في دماغي، وأتساءل: ماذا لو أحببتُ صوفي؟ أرتاح لهذه الفكرة، وأتساءل: ماذا يفعل الحبُّ أكثر مما نفعله الآن معاً؟. لا شيء. ما أجمل صوفي، وحبها!. لو كانت صوفي تبحث عن الحبّ فقط، لوجدت شيئاً آخر غير الغيرة دلالة عليه. وربما لذلك ناكدتُها. لأنّ الغيرة قد تكون دلالة على الخوف مِن الفقد، والرغبة بالتملُّك أكثر مِما تعني الحبّ. وهذا ما تُعاني صوفي منه على ما يبدو، وتحتاج لوقت أكبر لتفهم حبها لي، وتحرّره مِن الغيرة، أو بالأحرى من الخوف مِن الفقد.

أشرب القهوة، وأشعل سيجارة. أفكّر بي، وأشعر بالحزن للفارق بين عمرَيْنا. فهذا شيء ليس في صالحي، لأنّ علاقتنا لو استمرت على ما هي الآن، سيتوقف جسدي عن التجاوب مع جسدِها في سنةٍ ما

مِن السنوات القادمة. ولهذا ستكون الغيرة معاناتي الكبيرة، ولا أعرف حينها هي مما ستغار؟. لا على شيء بالتأكيد. وستتركني مثلما تركتُ غيرها، وهذا مِن حقها، ولن أحرمها منه.

أرتاح لخواطري وتفكيري بمآلاتها. فهي تعني فيما تعنيه أنّني مشغول بامرأة واحدة، ولم أعُدْ مضطراً لأتحمّل غلاظات وسماجات نساء ثرثارات، ولاسيما على الفيس بوك، غالباً مِن الضجر، ويحصل مِن أجل إقامة علاقة جنسية عابرة، مِن الصعب أن تحدثَ، وإنْ حدثتْ فقد لا أتحمّل معاودة تذكّرها. أشعر بضغطٍ ما في أمعائي، أسارع إلى الحمّام، أرفع كرسيّ المرحاض، وأجلس. أسترخي، وأتخلّص مِن ضغوطاتي. أتشطف، أنشّف. أغسل يدي بالماء والصابون، أنشفهما. وأحلق ذقني.

عادة حين أخرج مِن المرحاض في شقتي أرتاح على السرير قليلاً، لكنّني أفضّل الآن أن أترك صُوفي مستمتعة بنومها. أدخل إلى الصالون، وأضحك لأنّني أراها تجلس مكاني ملقية روباً خفيفاً على جسدها العاري، تشرب القهوة، وتدخّن. تنظر إليّ باسمةً، وتقول بصوت لم تزل تعْلق به بحّة النُّعاس وكسله:

- صباح الخير.

أردّ عليها بحماس:

- صباح الخير.

أجلس على الكنبة قبالتها، ولأنشطّها أكثر أسألها:

- كيفك اليوم؟

تنظر إليّ غامزة بابتسامتها العابثة:

- أحبّك أكثر مِن البارحة.

أنظرُ إليها بمودّة مُستذكِراً خواطري قبل قليل، وأقول لها بجديّة:

- وأنا أحبّك، يا صوفي.

تضحك، تنظر إليّ بامتنان، وتقول:

- أشعر بذلك دائماً.

يُطمئنني جوابها على تفهّمها لطبيعتي، وأسألها ممازحاً:

- وماذا أيضاً؟

تضحك، وتقول بمرَح:

- جوعانة، وأشتهي الفلافل والفول المدمس.

أضحك معجباً بشهوتها، وأقول لها:

- يوجد إلى جانب حديقة الضاحية محلّ يحضرهما كبوز الجدي في دمشق.

تهزّ رأسها موافقة، وتقول:

- أعرفه.

أذهب إلى غرفة النوم أرتدي ثيابي، وأعود إلى الصالون، وأسألها:

- هل أجلب شيئاً آخر؟

- اجلبْ لنا كم حبة بصل يابس والخيار والبندورة والخبز الأسمر. ولا تنسَ أن تأخذ معك مفتاح الشقّة، لأنّني قد أكون في الحمام حين تعود.

- سآخذه.

- سأشتاق إليك.

- أنا أكثر.

- تعال قبّلني.

أقترب منها، أنحني وأرفع ثدييها براحتيّ قليلاً، وأقبّلها على شفتيها. تمسك يديّ وتقبّلهما، تفرك بهما ثدييها، وتميلني لأجلس جانبها. تمسك يدي وتدلك بها عانتها، تمسك سبابتي وتمرّرها على بظرها ببطء إلى أسفل وإلى أعلى وبحركة دائرية، تترك يدي. تمسك رأسي بكلتا يديها وتقربه من وجهها، تلتقط شفتيّ، وأنا مستمتع بالاستسلام لها، تدفع خصري بيدها إلى أن أتكئ بركبتي على الصوفا بين فخذيها. تدخل لسانها داخل فمي، أراقصه بلساني، فتدخل شفتيها وتلتقط رأس لساني، أدخله في فمها، تمصه حتى ينشف. تنزل رأسي إلى عنقها أقبله وألحسه، إلى صدرها أقبله وألحسه، إلى ثدييها

أقبلهما وألحسهما، تلقمني حلمتها، تلقمني حلمتها الثانية. تخفض رأسي إلى بطنها أقبله وألحسه. تخفضه إلى عانتها، أمرّر لساني على بظرها، فتتأوّه. أمرّره إلى أسفل وإلى أعلى، إلى اليمين وإلى اليسار، أتفلُ ما علقَ بفمي مِن شَعر العانة. ألحسه مجدّداً. أسرع في تحريكه تتلاحق أنفاسها، ألحسه تتصاعد آهاتها، ألحسه تتصاعد آخاتها، ألحسه تتصاعد صرخاتها. تُبعِد رأسي، تُوقفني وتقرّب حوضي إليها، أساعدها في خلع بنطالي وكيلوتي. ترى قضيبي منتصباً، تمسكه وتقبّله وتضمه إلى ثدييها. تقف وتدير لي ظهرها. تتكئ بيديها على مسند الصوفا، أمسكها مِن خصرها وألامس عانتي بمؤخرتها تمدّ يدها وتدخله في فرجها. أحركّه إلى الأمام وإلى الخلف حركات متتالية. أمدّه، أسحبه عدّة مرّات. أمسك ردفيها، أمدّه وأسحبه بانتظام، وأنا أصغي، مستمتعاً، إلى أصوات لذّتها ونغمات توجعها وأنينها. تصرخ:

– اقذفه.

أسرع في سحبه ومدّه، تتصاعد ضربات عانتي بمؤخرتها. أمسك خصرها أضغطه أعمق ما يمكن وأنا أصرخ لذّة من دفق منيّي داخلها.

أساعدها بالاستلقاء على الصوفا. أسرع إلى الحمّام، أغسل قضيبي.

أعود إلى الصالون أنشفه بالمحارم مِن على الطاولة. أرتدي كيلوتي وبنطالي. أقبِّل صوفي، تقبّلني، وترجوني ألا أتأخّر. أمشي إلى باب الشقة، أرتدي حذائي، ألتقط المفتاح مِن على الطاولة الجانبية، وأخرج لأجلب الفطور.

أمشي على يمين الشارع مسترخياً، مستمتعاً بنسائم هذا الصباح الغائم. أصعد على الرصيف، ألاحظ بعض الإشارات والابتسامات تتوجّه صوبي. أتابع المشي غير عابئ بها طالما لم يَعُدْ لديّ ما أنشره. أشتري الفلافل والفول المدمّس. وأمرّ على دكان الخضار الذي التقيت فيه بصُوفي، أشتري الخضروات والخبز، مستمتعاً بتعليقات البائع عن حرماني إياه من رؤية صوفي بتوريته البلاغية المعتادة:

– قال صرت تصطاد الحَمَام ولا تكشّه حتى لا نراه.

أنظر إليه، وأضحك. أرفعُ يدي باتجاهه على شكل إشارة إعجاب، يرفع يده بإشارة مثلها، ويقول لي على سبيل الإطراء:

– معلّم.

أغادره مبتسماً غير مبالٍ بما يقول طالما أنّ ما يقوله هذه المرة لا يتقاطع ببلاغته مع ما أرسله إلى الدوريات العربية لنشره. وكيلا أبدو أبلهاً مع نفسي أذكّر نفسي بكثير مِن مثل هذه المصادفات التي لا

علاقة لها بالمراقبة الأمنية إذ ليس لديّ ما أخفيه. ولا علاقة لها بتبادل المعلومات إذ ما هي المعلومات الإشارية التي يمكن لكاتبٍ مثلي تبادلها مع امرأة تنشر الغسيل أو مع رجل أنيق يسوق سيارة مِن طراز حديث وما يشبه ذلك حسب مستوى الشخصيات الأدبية التي كتب عنها؟ لكن، ما يزعجني، حقيقة، في هذه الضغوطات البلاغية، إضافة إلى تواترها مع أي شيء أكتبه حتى لو كان وصف وردة، هو إظهار الانزعاج مني، وأحياناً إزعاجي إلى درجة الإهانة والأذى المادي. غير أنّ الحقّ يقال إنّ هذا البائع أجادَ الوصف في عبارته إذا ما كان يقصد بالحمام ثديي صوفي، وإن كان تشبيهي لهما بالحجل أكثر دقّة وجمالاً. وربما هو يشير إلى فستانها مساء البارحة في مشوارنا إلى مطعم التنور، وما أظهره مِن مفاتنِ جسدِها ويرغب أن تجيء إلى دكانه به. أضحك مِن رغبته، وأُعْجَبُ بها. ولكن أنبّه نفسي إلى أنّ هذه المقارنة في البلاغة بيننا أنا والبائع تحدث بشكل أكثر فظاظة في حال المقارنة مع كتاباتي، وكأنّ لا شغل لطابور الضغط هذا سوى تملّك ما أكتبه، أو الحطّ مِن قيمته أمام نفسي، أو إفراغه مِن جدواه. وغالباً ما أتساءل: لماذا يفعلون ذلك؟ ولصالح مَن؟ ألا يكفي ما قاموا به مِن تخريب للتعليم والثقافة مِن أجل القضاء على أيّ أمل بنهوض هذا الشعب مِن تخلفه،

وسحق إمكانية لحاقه بركب الحضارة؟. لكنْ، ما جدوى كلّ هذه الأسئلة، وقد حَصَلَ في سوريا ما حَصلَ، ولا أحد يتعلَّم، ولا أحد يَعْتَبِر؟ وكأنّ هناك مَن يحكم سوريا في الظل، ولا هَمَّ له سوى أن يقودها شيئاً فشيئاً إلى هلاكها التام.

أشعر أنّ لاحتقانَ بدأ يضغط على صدغيّ لولا أنّني أسمع صوتاً أنثوياً يناديني ليحرّرني من ترهاتي:

- أستاذ نديم.

ألتفت إلى مصدر الصوت، فأرى إحدى زميلاتي في المدرسة، تخرج مِن باب أحد الدكاكين تتطلع إليّ وتبتسم. أضحك لها، وأرحّب بها:

- أهلاً آنسة لينا. كيفك؟

- تمام. أنت كيفك.

- أنا منيح.

تقترب مني، وتسألني:

- صحيح ما أسمع؟

- ما تسمعين؟

- أنّ صُوفي استطاعت أن تعثرَ عليكَ، أخيراً؟

أضحك وأجيبها:

- صحيح. مَن أخبرَكِ؟

- هُوووهُووو، الضاحية كلها صارت تعرف.

- ولكنْ نحن معارفنا قلائل في الضاحية.

- وإذا..

- وإذا؟ وإذا!.. يا ليت لو تعثرين أنت عليّ أيضاً.

تضحك، وتجيبني بثقة:

- صَعْب.

أضحك لمعرفتي بما تريد، وأقول لها:

- بل مستحيل. يكفي أنّني سأراك قريباً في المدرسة.

- إن شاء الله. سلّم لي على صوفي.

- الله يسلمك. هل تعرفينها؟

- طبعاً، هي صديقتي وزميلتي في المدرسة الخاصة.

- طيب، يُوصَل.

أتابع طريقي باتجاه شقة صُوفي هادئاً، مُسترخياً، وأنا أشكر لينا لأنها أراحت رأسي مِن بلاغات الآخرين الاعتباطية. لينا من النوع الودود، وتتفهّم اختلافَ الناس عن شخصيتها. لذلك تُقيم الكثيرَ مِن الصداقات وتنجح أينما عملت في تدريس اللغة الانكليزية. ما يؤسف له أنها تضيّع شبابها البهيّ في البحث عن زوج كامل المواصفات يشبه تقريباً أحد الشخصيات في المسلسلات المدبلجة ، ثري ووسيم

ويحبّ أن يكون له عائلة. وبانتظار أن تلقاه تشغل نفسها بالتدريس في أيّ مكان يُتاح لها في المدارس والمعاهد والدروس الخصوصية.

أضع ما أحمله على الأرض، وأفتح الباب. أسمع صوت صُوفي يضحك في الصالون. تتكلّم، فأعرف أنها تتحدّث مع أمّها. أغلق الباب بهدوء. أَخلع حذائي، وأمشي حافياً إلى المطبخ.

أساعد صوفي قدر ما أستطيع في إعداد الطعام. أمازحها، وألامسها مدغدِغاً، وأشعر أنّا سعيدان مِن تواجدنا مع بعضنا البعض أكثر مِن فِعْل المساعدة ولا سيما في تقشير البصل وتقطيعه الذي أتولّى مهمته. تضحك مِن دموعي، وتسألني:

– هل ترغب بشيء آخر مع الفلافل والفول.

– طبعاً، زبدة وعسل.

تقهقه وهي ترتّب قِطَعَ البصل و الفليفلة الخضراء وعروق النعنع التي قصصتها، إلى جانب مخللات اللفْت الحمراء. وتطلب منّي أن آخذ طبَقَ الفول إلى طاولة الطعام. أُوصِل الطبَقَ، وأعود لأساعدها في نقْلِ الصحون الأخرى. آتي بالخبز والملاعق، أضعهما على الطاولة، وأجلس. تتبعني تضع صحنَيّ الزبدة والعسل أمامي، وتقول مبتسمةً:

– تفضّل. هذه شواحن الطاقة. لكَ وحدك.

أنظر إليها ضاحكاً، وأشكرها مِن غير أن أخبرها أنّني، في الواقع، أفضّل مذاقهما على فائدتهما. نأكل متلذّذَين بسَلَطة الفول الغنيّة بطعومها المختلفة مِن ثُوم وليمون وبندورة وبقدونس إضافة إلى طعْم الفول وشوربته المميّزة وما نمزجه مع كل ذلك في فمِنا مِن طعوم الخبز والفليفلة والبصل والمخللات. نُنهي طعامنا صامتين لا يقطع صمتنا إلا قرمشة صوفي لأقراص الفلافل بين الحين والآخر، أو همهمتي ولقمستي المُبالَغ فيهما تعبيراً عن مدى سعادتي بمزْج الزبدة والعسل والتهامهما.

أرفع الأطباق، وآتي بالشاي. أشعِلُ سيجارة، وأخبر صوفي:

– تسلّم لينا عليك.

ينشرح وجهها، وتقول:

– الله يسلمك. أين رأيتَها؟

– على رصيف الشارع، وأنا قادم مِن دكّان الخضّار.

– لكنْ، مَن أخبرها بعلاقتنا.

– قالت: إنّ الضاحية كلّها تعرِف.

– ولكنْ نحن لا نعرف أحداً في الضاحية.

– قلتُ لها ذلك.

– وماذا قالت؟

- قالت: وإذا.

- صحيح، وإذا؟

- وإذا ماذا أنت الأخرى؟

تضحك، وتوضِّح:

- وإذا عَرَفتْ الضاحية كلّها؟

أضحك، وأقول:

- على الأقلّ أنتِ تختلفين عنها.

- بماذا؟

- تقولين شيئاً مفهوماً.

- لا تظلمْها. فهي مَن عرّفتني عليك.

- أمزح. أنا دائماً أمزح معها بوجودها وغيابها. ولكن كيف عرّفتكِ عَلَيّ؟

- حين زارتني أوّل مرة إلى هنا، سألتْ عن صاحب القصيدة. فقلتُ لها: لا أعرف غير اسمه الأول. وحين ذكرته. ضحكتْ، وأخبرتْني أنها تعرف اسمكَ كاملاً بعد أن تذكرتْ أنها قرأت القصيدة في ديوانك. وأخبرتني أنّك زميلها في المدرسة، وأنك تسكن في هذه الضاحية.

- صحيح، لقد أهديتها ديواني "الطوفان"، والقصيدة منشورة فيه.

- بعد ذلك رأيناكَ تمشي بسرعة، تمارس رياضة المشي.

- صحيح.

- فنكزتْني، وهمستْ لي: انظري إلى الشاعر نديم كيف يمشي؟ نظرتُ إليكَ مُعجَبة بشيء ما غير القصيدة. ورأيناكَ مرة ثانية تخرج مِن دكان الخضار، فسألتُ لينا: أليس هذا الشاعر نديم؟. فهزّت رأسها مبتسمة، وقالت: نعم هو. هل ترغبين بالتعرّف عليه؟. فقلت لها: الآن، لا. ربما في مناسبة أخرى. استعرْتُ منها ديوانك، أعجبتني فلسفتك في معالجة القضايا، وصُوَرَكَ الجريئة. لذلك كنت دائماً أسألها عنك كلما جلسنا جلسة طويلة، فتُخبرني أشياء أحبّها عن فوضويّتك، وعن تعامُلكَ مع تلاميذك الأطفال.

- لماذا أوحت لي لينا أنكِ تبحثين عنّي؟

- مرّة قالت لي: أراكِ مُهتمةً به كثيراً، وأستطيع أن أعرِّفَكِ عليه بسهولة. رفضتُ، وقلت لها: سأجِدُه بنفسي.

أضحكُ، وأنظر إليها بِشَغَف، وأقول لها:

- فهمت.

- ماذا فهمت؟

- أنك تعرفينني.

- لا، لم أكن أتوقّع أنْ تكون على هذا النحو مِن السلاسة والعذوبة.

- كيف يعني؟

تنظر إليّ بخبث، وتقهقه:

- يعني: أشْرَبُكَ ثلاث مرّات في اليوم، ولا أرتوي.

أضحك بصخَب، وأسألها:

- والآن عطشانة؟

- شيئاً ما.

- ولكن أراك ترتدين ثياب الخروج.

- أفكّر أن نذهب إلى البحر.

- فكرة جميلة، فطقس اليوم لطيف نوعاً ما.

- صحيح.

أتلفِنُ للسائق المُعتمَد مِن قِبَلي لمثل هذه المشاوير، وأعطيه عنواناً يعرفه، ويكون قريباً مِن شقة صُوفي. نتمشّى عدة أمتار، أرى السائق بانتظارنا. تركب صُوفي في المقعد الخلفي وأركب إلى جانبه. يغمزني، أتذكّر حديثي مع لينا، فأخبره بلهجة حاسمة بأنها خطيبتي. فيُتابع سياقته صامتاً. نصل إلى مدخل الضاحية، فأسألها:

- تفضلين الذهاب إلى داخل المدينة أم خارجها؟

- إلى داخل المدينة، إلى الكورنيش الجنوبي.

ننزل أول الكورنيش، ونتمشّى على رصيفه، مستمتعَين بفسحة الماء

الواسعة الممتدة أمامنا، وبالنسائم التي تلفحُنا منها. أرى رفّاً من النوارس يحطّ على صخرة كبيرة داخل الماء، فأشير نحوه، لتنظر إليه صوفي، فتهزّ رأسها، وتبتسم، مستمتعةً بما تراه. تُوقِفُني، وتُخرِجُ موبايلها مِن الحقيبة. تُعطي ظهرَها للبحر وتطلب منّي أن أقف إلى جانبها لتلتقط لنا صورة. تضع يدي على كتفها ويدَها على خصري، أحضن كتفها، فتلتقط الصورة. تنظر إليها، تضحك، وتسألني:

- لماذا تنظر إلى ثديي؟

أضحك، وأجيبها:

- دائماً أنظر إليهما.

- طيِّب، ابْقَ مكانكَ سآخذ لك صورة بمفردِكَ.

ترفع موبايلها، تخفضه. تحرّكه إلى اليمين، إلى اليسار، تستقر يدها. تلتقط الصورة، تُعجبها. تضع موبايلها في الحقيبة، ونتابع المشي. نحاول أن نمشي أطول مسافة ممكنة بسبب ما أكلناه مِن فول وفلافل. لولا أنّ الغيومَ بدأت تنقشع، وأخذت الشمس بالسطوع لتُنضِجَ التينَ والعنب بحرارتها القوية، غير مكترثة بتنزّهنا في وقت غير مناسب. نحترم إرادتها، وننعطف إلى أحد المطاعم. ننزل الدرج إلى آخره، إلى الشرفة المظلّلة بشوادر متحركة، ومخصَّصة للمشروبات والوجْبات السريعة. نختار طاولة مُطلة على البحر، نجلس أنا

وصوفي متقابلَين. نتبادل الابتسامات والنظرات المَرِحة. يأتي النادل، ويضع المياه المعدنية وعلبة المحارم، ويرحّب بنا. ويسألنا ماذا نطلب؟. أردّ تحيّته، وأسأل صوفي:

– هل تتعاطين النرجيلة؟

تضحك، وتقول:

– لا أتعاطى.

– بيرة؟.

تهزّ رأسها موافِقة. ألتفتُ إلى النادل، وأطلبُ منه زجاجتَي بيرة. يُغادرنا مبتسماً، ويعود سريعاً بِطلبِنا. يتولى النادل سكب كأسينا الكبيرين. تُخرِج صوفي من محفظتها علبة الدخان والقدّاحة، وتضعهما على الطاولة. نشرب البيرة، وندخّن، ونتفرّج على البحر وطيوره مِن غير أن نتكلّم.

تنظر إليّ بعينين كسولتَين، تحرّك شفتيها، وبالكاد أسمعها تقول:

– اشتقتُ إليك.

– وأنا

– ماذا؟

– أحبّك.

تشبك ذراعيها على الطاولة، وتلقي بثدييها عليهما، وتُطلِق آهةً

خفيضة.

– صُوفي منذ متى لم تمارسي الجنس؟

– منذ قُدومي إلى هنا. منذ سنتين تقريباً.

وأنتَ؟

– قبل مَجيئي إلى هنا، منذ ساعتين تقريباً.

تضحك بغنج ضحكة مقتضبة، ترمقني بنظرة متفهّمة. ومع ذلك تقول:

– يلّهْ، تأخرْنا.

أحاسِبُ النادل بسرعة. نركب التكسي، ونعود إلى الضاحية.

تفتح باب الشقّة وهي تتثاءب. أتثاءب خلفها بلا إرادة. نخلع حذاءينا، ونمشي إلى غرفة النوم مباشَرة. نتعرى مِن ثيابنا، و نستلقي على التخت. تقترب منّي، تُعانقني، وتقول:

– نعسانة.

أداعب شَعرَها بعينين مُغمَضتين. أغفو، وتغفو بين ذراعَي.

أستيقظ حوالي الساعة السادسة. أرى صوفي مُستيقظة قبلي. أحسّ بالعطَش، فأسرِعُ إلى المطبخ لأشرب الماء. أشاهد صوفي تغلي القهوة، وهي تدندن لنفسها بشيء ما، متمايلة بروب شفّاف قصير، لا يكاد يُخفي شيئاً مِن جسدها، وشَعرِها المبلل يتمايل على كتفَيها

وظهرِها.

- مساء الخير، يا حلوة.

- مساء الخير، يا عسل.

أضحك من توريتها. أرى قنينة ماء قرب المَجلى، أشرب ما فيها دفعة واحدة. أقترب مِن صوفي أقبِّلها على خدّها، وأخرج إلى المصطبة، أحسّ بحرارة الجوّ المرتفعة. فأذهب إلى الصالون.

أجلس على الصوفا، وأفكّر أنّ أتحمّم، لولا أنّ صوفي تجيء بفنجانيّ القهوة، وتضعهما على الطاولة. أفسح لها مجالاً لتجلس لِصقي أمام المنفضة، فأنتعش برائحتها النظيفة. أناوِلها فنجاناً، وأشرب مِن الثاني. أتفقَّد ما في داخل علبة الدخان، أظنّه يكفينا الآن. أشعِلُ سيجارة، وأضع العلبة بمتَناوَلها. تُسارع بالتقاطها، وتُشعِل سيجارة. تضع رِجْلاً فوق رِجْل، وتدخّن. أسألها لأقول شيئاً يلهيني عن جسدها:

- ماذا سنفعل هذا المساء.

تُبرِز صدرها ضاحكة، وتقول:

- أهمّ شيء سنفعله هو الحبّ.

وكعادتي وقت أمضي الوقت بالثرثرة أترك الكلام يجرّ الكلام، فأسألها ممازحاً:

- تفضّلين الحبّ العذري أم الحبّ الماجِن؟

- غليظ.

أضحك، وأسألها ببراءة:

- لماذا؟

تجيبني بتهكّم:

- أنا فضضْتُ عذريّتي.

أتصنّع الجديّة، وأسألها:

- كيف؟ لم أفهم.

- مثلما طلبتَ في قصيدتكَ (السيف والبكارة).

أشعر أنّي أضغط عليها، وأحرِجُها، أضع يدي على كتفها، وأضمها إلى صدري، وأقول:

- حسناً فعلتِ.

يتحسّن مزاجُها، تضحك ساخرة مِن شيءٍ ما ستخبرني به عاجلاً أم آجلاً، فتشرح لي:

- كنت في السادسة عشرة حين سمعت صديقاتي يتحدثن عن العادة السريّة. وكنت قبل ذلك كلما فركت عانتي وفرْجي وأنا أحمّمهما أشعر بلذّة خفيفة أجهل مصدرها إلى أن علمت منهنّ موضعها. وأدمنت على مداعبة بظري. غير أنّني في إحدى المرّات هجْتُ

زيادة، فأدخلتُ إصبعي الوسطى داخل مهبلي بسرعة وقوّة، فشعرت بألم بسيط، وحين نظرتُ إلى إصبعي وجدتها مبللّة بقليل من الدماء.

– معظم الفتيات في أوربا يفعلْن ذلك، إذا لم يجدْن صديقاً.

– أوربا هي أوربا. وسوريا هي سوريا. أم تريد أن تقول لي: أوربا هي بالأصل إلاهة سورية؟.

– سأقول لك: العبْرة بالخواتيم، أم تراجعتِ عن اقتراحكِ لهذا المساء.

– ما هو؟

– فعْل الحب؟

تضحك، وتقول بتودّد وغنج:

– ألم أقل لك: إنك غليظ؟

– بلى، قلتِها أكثر من مرّة، وبطرُق مختلفة.

– هذا لأنّي أحبّ غلاظتك.

أضع يدي على ركبتها المرتفعة، ألَمْسها، تنظر إليّ موافقة، ألَمِس فخذها، تنزل رِجْلَها. وتُنهِض جسدها إلى الخلف. أمرّر أصابع يدي على بطنِها، ثدييها، شفتيها، وأمدّها خلف شَعرِها، أمسك كتفَها، وأدخِل يدي الأخرى تحت روبها، داخل كيلوتها، إلى عانتها، أغلغل أصابعي بين شعراتها، تلمَسُ إصبعي الوسطى بظَرها، تتأوّه، أحرّكها عليه، أنزلها إلى شفرتي فرجها على مهل، ترفع حوضها،

تخلع كيلوتها. أضع يدي على فرجها ثانية، أمرّر إصبعي بين شفرتيه، أشعر بلزوجة فتحة مهبلها، أدخل إصبعي فيها، أمدّها، أسحبها، أضغطها، فتنزلق كلها، تشهق صوفي كما لم تفعل مِن قَبْل. أحرّك إصبعي متلذّذاً بملمَس مهبلها، تتوالى آهات صوفي وآخاتها. تخرج إصبعي. تميل عليّ، تضع يدها على كتفي، وتحاول باليد الأخرى خلع كيلوتي، أخلعه. تخلع روبها. تمسك بكلتا يديها مسند الصوفا على جانبي رأسي، تسند ركبتها على طرف المقعد، وترفع الأخرى وهي تجلس على فخذيّ أمسك قضيبي وأقرّبه إلى الأمام قليلاً، تقرّب فرْجَها، أدخله، وأسحب يدي لأمسك إبطها، تنزل على قضيبي إلى آخره، وتصرخ متأوّهةً. أرفعها قليلاً وأنزلها، أرفعها وأنزلها، يستجيب جسدُها لوضعيته على جسدي، فيأخذ بالعلوّ والهُبوط تلقائياً، أسند ظهرها بكلتا يدي، وألحمسه بهما مِن فوق إلى تحت، مِن تحت إلى فوق، وهي تلهث قرب رأسي. ألحمس خصرَها، أتفرّج على اهتزازات ثدييها وارتجاجهما فوق صدرها، تُسرِع بحركتها، صعوداً هبوطاً متأوّهة، متأخّخة، صارخة، تمسك رأسي تمرّغه بثدييها، فأطلق آهة نشوتي، ومنيّي يدفق في رحمها. تجلس على فخذيّ، تقبلني. أقبلها. أساعدها على الوقوف.

نتبادل ابتسامات الرضى والسعادة، ونذهب إلى الحمّام. تغسل

صوفي جسدها بسرعة. تفرك ظهري، وتسألني:

- ما رأيك عندما تغيب الشمس نتمشى في الحارة، ونشتري بعض الأغراض؟.

أهزّ رأسي موافقاً، وأقول:

- نحتاج إلى الدخان على الأقل.

تضحك وتسألني مرحة:

- هل أرتدي فستاناً؟

أضحك، وأقول لها:

- على أن يكون أقصر مِن الفستان البنيّ.

تتركني لأكمل استحمامي، وهي تردّد غاضبة، مغناجة:

- غليظ، غليظ، غليظ.

أدخل غرفة النوم لا أرى صوفي. أرتدي كيلوتاً جديداً. أتذكّر رغبتها بالتنزّه، فأرتدي بنطالي وبلوزتي. أمشي إلى الصالون تراني، فتقف، وتدور بفستانها الأصفر فَرِحة، يبدو أطول مِن فستان البارحة، إلى فوق ركبتيها بقليل، يعجبني لونُه الكثيف والمُضيء، فأقول لها:

- رائع.

- هل نخرج؟

- هيا.

نتمشى، كالعادة، على مَهَل. لا شيء هام يشغل بالنا سوى الحب كما قالت صوفي. غير أنّنا لا نهتمّ بالحبّ ونقلق به بقدر ما نفعله بكافة أشكاله ونَسعد به، بل نحن لا نفكّر بالزواج حتى الآن ولا بتبعاته وهمومِه المعتادة. تسألني صوفي:

– ماذا سنأكل؟

– لا أعرف.

تتذكّر شرحات الفروج، فتقترح عليّ.

– ما رأيك أن أحمس الشرحات؟.

أهزّ رأسي موافقاً، وأقول:

– يبقى علينا أن نشتري الدخان.

– نشتريها من الكشك آخر الشارع.

– تمام.

نتابع المشي مستمتعين بلطافة الطقس ونسائمه النقيّة. تلتفت صوفي للنظرات المُعجَبة وتتبادل الابتسامات مع كل مَن يبتسم لها. ويخطر لي شيئاً، فأقوله لها:

– ربما اليوم الإعجاب بكِ بسبب جمال فستانك أكثر مِن الإعجاب بجمال فخذَيك.

تكتم قهقهة، وتنظر إليّ بتعالٍ، وتقول بلهجة مفتخِرة:

- كلاهما جميلان.

أضحك مُعجَباً بجوابها. أمسك يدَها، وأقول:

- أشعر أنّي لم أعد قادراً على فراقك.

تضغط على يدي برقّة، وتقول:

- أنا أحبّك.

أشعر بجُملتِها تُوقِظ روحي وتُنعشُها. أسأل نفسي لماذا لا أقول لها ما أشعر به مِن حُبّ تجاهها مثلما تفعل هِي؟ أفتّش عن جملة مناسبة، تعبّر عن شعوري حقيقة، فأقول لها:

- أنا أحبّك أيضاً، وأحبّ حبّك لي، وأعشق الطريقة التي نعيش بها.

تضحك بغنج وتقول:

- هذا ما أريده.

وتردف ممازحة:

- ربما يجعلكَ هذا تكتب قصائد بلا عقَد وبلا مشاكل في الأيام القادمة.

لا أعرف لماذا قلت لها؟:

- وربما أكتب رواية أيضاً.

تبتسم مُغتبطة بإيجابيتي في التفاعل مع اقتراحِها وتأثيرِها، وتقول:

- أنت شاعر وناقد ويمكن أن تكتب رواية بسهولة.

أبتسم مُعتزاً بثِقتها، وأقول:

- ربما.

أتطلع أمامي فأرى كشْكَ الدخّان على مقربة منا. لكن، يخطر لي أن أشتري الدخان مِن دكان الخضّار، ربما لألبي رغبة البائع برؤية صوفي ترتدي فستاناً جميلاً، ولأضع حدّاً لتصوره المُبتذَل عن علاقتي بها. أخبر صُوفي برغبتي، مُتَذَرّعاً بأنّ سجائر الدكان أفضل مِن حيث تاريخ الإنتاج، فلا تمانِع. يُدهَش البائع حين ندخل دكانه يرحِّب بنا مرتبكاً، أبتسم له، وأقدّم له صوفي على أنها خطيبتي. يرحّب بها باحترام وموّدة فتمدّ صوفي يدها لتصافحه. يرتبك قليلاً، لكنه يمدّ يده أخيراً، ويُصافحها غير مصدّق. نشتري الدخان ونعود إلى شقّة صوفي.

حين ندخل الشقّة تكون الساعة قد تجاوزت التاسعة ليلاً بقليل. أذكر ذلك لأفسّر أنّ شغَفَنا بالطعام سَبَبُه تباعُدُ وجباته واقتصارُه على وجبتين فقط. تسألني مداعبة:

- هل أحْمِسُ الشرحات بالزبدة أم بالزيت؟

أضحك وأقول لها:

- بالزيت. ولكن أفضّل أن تضيفي إليها الثوم إذا ما تبقى شيءٌ مقشّرٌ منه.

- تبقّى، فأنا أشتري الثوم مقشّراً.

- هذا هو المطلوب.

نضع طبق الشرحات المحموسة، وطبق شرائح الخضروات والمخللات المتبقية مِن وجبة الصباح على طاولة الطعام. ونأكل بحماس وَنَهَمٍ إلى أنْ نمسحَ الطبَقَين قبْل أن آخذهما إلى المَجلى.

حين أعود تسألني صوفي:

- ما رأيك أن نشربَ الويسكي؟

أجيبها عابثاً:

- ليس لديّ مشاريع أخرى.

تضحك، وتنهض إلى المطبخ متحمِّسة بينما أشعل سيجارة بانتظارها. أدخّن وأنظر إلى الحديقة وما تضيئه المصابيح مِن أشجارها، أتذكّر أنّنا لم نقطف التين مِن يومَين. فجأة تظهر صُوفي مِن وراء الزجاج وتُشير إليَّ باسمة لكي ألتحقَ بها.

أحمِلُ علبة الدخان والقدّاحة وأمشي إلى الحديقة أرى صوفي تجلس واضعة خدَّها على يدِها، أجلس قبالتها. أنظر إلى القدَحين الصغيرَين مُبتسماً، وأسألها:

- لماذا هُما صغيران هكذا؟.

- لكي نكرع الويسكي دُفعةً واحدة.

- لم يبق في الزجاجة الكثير.

- ولا يهمّك. هناك غيرها.

- ممتاز.

- أراك تشرب باعتدال. ولا تسكَرُ كما سمعتُ عنك.

أضحك، وأجيبها:

- لأنك دائماً معي.

- إذا كان هذا هو الحلّ سأبقى مَعَك.

أهزّ رأسي موافِقاً. أضع قطعة ثلجٍ في القدَح، أسكب الويسكي فوقه، وأناوِلُه لِصُوفي. أملأ قدحاً لي، وأرفعه أمامها:

- بصحتنا معاً.

تقرع قدحي مرحة:

- بصحتنا دائماً.

نحرّك القدحين حتى يذوبَ الثلج. نُفرغهما في جَوفَيْنا، نطرقهما على الطاولة في وقت واحد، ونضحك. أملأ قدَحَين آخرين وننتظر حتى يذوب ثلجهما. تُشعل صوفي سيجارة، وأشعل واحدة. أدخّن وأتأمّل الزرّين اللذين يُغلقان الفستان على صدرها، أنظر إلى ثدييها تحت فستانها، وأشردُ بهما. تلاحظ صوفي ذلك، ترفع قدَحها وتكرعه. تلوّح بيديها أمام صدرها وتتأفّف مِن شدّة الحرارة. أضحك وأكرع قدَحي.

أملأ القدَحين بينما تفكّ صوفي الزرَّين فيطلّ ثدياها أمامي شهيين كثديي نجمة سينمائية يتفرّج عليهما مراهِقٌ محروم. تنظر إليّ وتغمزني مُبتسمة. أرفع قدَحي وأكرعه. تكرع قدحَها وتُرسِلُ إليّ قبلة في الهواء. أبادلها القبْلة. أملأ قدَحي فتفرغ الزجاجة. أسكبُ مِن قدحي قليلاً في قدَحها. أرفَعُ قدَحِي أمامها ترفع قدَحَها ونكرع القدَحَين معاً. أنهض وأقف وراءها. أضع يديّ على ثدييها، تُميل رأسَها إلى الخلف أنحني بشفتيَّ على شفتَيها. أقبلها وأقبلها إلى أن تنهضَ وتخلع فستانها وحذاءها وتخطو حافية في الحديقة وتجلس على مرجة مُعشِبة بين الورود، أتعرى وألحقها حافياً. أجلسُ على العشب قبالتها ،أعانقها وأقبلها، ينتصب قضيبي فأخلع كيلوتي وتخلع كيلوتها أجلسها على فخذيّ وأمرّغ وجهي بثدييها وأدفنه بينهما، ترفع مؤخرتها وتمسك قضيبي وتُدخله في فرْجِها. أرفع رأسي، وأحضنها بذراعي وأنزِلُها لتستلقي تحتي على العشب. أتكئ على ركبتي وآخذ بدقّها غير عابئ بألمهما مِن قسوة الأرض واحتكاكهما بها. أشْعِرُها بألمي فتُميلني وتَميل إلى جنبها، أمدّ ذراعي تحت عنقها وأقرّب ثدييها مِن صدري فترفع رِجْلَها على فخذي وتُمسِك قضيبي وتدخله فيها، أدقها وأدقها حتى ترقّ وتشفّ وتُطلِق أعذب آهاتها وأشجاها وترجوني أن أقذف في رحمِها. أقذفُ في رحمها، وأنا أصرخ لذّتي

لّها. أضع خدّي على خدّها، أقبّله، وأستلقي على ظهري لاهثاً أتنفس رائحة صوفي والعشب والورود.

اليوم الرابع

أستيقظ على حرارة الشمس الحادّة منزعجاً، أبْعِدُ رأسي عنها وأغفو قليلاً، تُلاحقني أشعتها وتوقظني ثانية. أجلس لأراني في الحديقة عارياً وصُوفي إلى جانبي تنامُ عارية. أشكر الشمس في خاطري على اهتمامِها بنا. أتذكّر أنّ هذا الحب وجماله حَدَث برغبة مِن صُوفي وليس استجابة لشطْحةٍ مِن شطحات سُكْري. أضع يدي على كتفها، أمرِّرُها على خصرها، تُبعدها عنه، وترجوني أن أتركها تنام. أطمئنّ لاستيقاظ ذهنِها ولو جزئياً، فأقول لها بصوت منخفض كيلا تجفل فزعة:

- صُوفي، نحن لم نزل في الحديقة.

- وإذا.

أضحك، وأشعر أنها تجيبني مِن برزخ النوم واليقظة غير مبالية بما أقول. أمرّر أطراف أصابعي على ذراعها، وأقول لها بصوت تسمعه جيداً:

- حبيبتي أنت تنامين عارية على العشب، وستمرضين.

تفتح عينيها ببطء، ترى العشب أمامها، تبتسم كأنها تذكّرتْ شيئاً

يُسعدها، تمدّ يدَها إليّ لأساعدها على الجلوس. تتمطّى، تتثاءب تنظر حولها وإلى جسدينا العاريين، تضحك مزهوّةً بما نحن عليه وتقول لي مداعِبة:

– صباح الخير، يا آدم.

أقهقه مُعجَباً بفطنتها، وأقول لها:

– صباح الخير، يا حوّاء.

أقف وأمدّ لها يدي، تُمسِكُها وتقف إلى جانبي. تنظر إلى شجرةِ تينٍ قريبة مِنّا، وتشير إلى حبّة ناضجة، وتقول لي:

– اقطفْ لي حبة تين.

أقطفُ لها الحبة التي أشارت إليها، وأناوِلها إياها. تفلقها، وتنظر داخلَها، وتأكلها مِن غير أن تقشرها. ألمح حبة تين أخرى يمكن أكلها، أقطفها، وآكلها.

نُدخِل ثيابَنا، وأوعية سهرتنا إلى الشقّة. أسبق صوفي إلى الحمّام، وتتبعني بالمناشف. نشعر أنّ النعاس لم يزل يطاردنا، نستلقي على التخت مستسلِمَين له، وننام.

حين أفيق، تكون صوفي قد شربتْ قهوتها، وها هي تحمل طَبَقَ القش، وتقطف ما تستطيع مِن حبات التين مِن على الأغصان الخفيضة. آخذُ رشْفة مِن فنجان القهوة أستمتع بفتورها. أشعِلُ

سيجارة، وأراقِبُ صُوفي مِن خِلال نافذة الصالون، وهي ترتدي بنطال جينز وبلوزة بيضاء وقبعة دائرية على رأسها، تُمتِعُني حركة ثَدييَها تحت البلوزة كطائرين يمرحان في البرية آمِنَين. حين أرفع رأسي بعد الرشفة الثانية تكون قد اختفت إما إلى الجهة الأخرى أو دخلت إلى المطبخ. أبتسم لتذكّري كيفية نومِنا عاريَين في الحديقة. وكيف استحضرتْ حكاية آدم وحواء، وأتساءل عن السبب الذي جَعَلَ بابا الفاتيكان يصرّح مؤخّراً بأنّ هذه الحكاية مجرّد أسطورة، ولا أدري ماذا يقصد بذلك؟.

على أيّة حال تعبتُ مِن التفكير بالأساطير والغيبيات، وقرّرتُ أن أتجاهلها، ولا آخذ مِن الأفكار الوجودية إلا بما أستطيع الاقتناعَ ببراهينه العقلية والعلمية، ولا سيما بعد أن شاهدتُ ما شاهدتُه مِن ألاعيب السَّحَرَةِ وخداعِهم. أطفئ عقب السيجارة، وآخذ رشفة كبيرة مِن القهوة. أحسّ أنّ تحرّري مِن الضغوطات الداخلية هذا الصباح يَسيرة. أنهض، وأمشي إلى الحمّام، أرفع غطاء المرحاض، وأجلس على كرسيّه، فيخرج كلّ شيء مِن أمعائي دُفعة واحدة. أكبسُ زرَّ المسند، أتشطّف. أنشّف. أغسل يديّ بالماء والصابون. أنشفهما. أحلق ذقني، وأخرج.

أرى صوفي تنقل الفطور إلى طاولة الطعام. أقبّلها، وأسارع إلى

مساعدتها. نجلس على كرسيينا، ونأكل صامِتَين، ألاحظ أنها قَلَتِ البيضَ بالزيت هذه المرّة. وأنها وضعت الزبدة بصحن إلى جانب صحن العسل، وحين أبدأ بأكلهما تنبهني:

- حبيبي، هذا آخر ما تبقّى مِن زبدة وعسل.

أنظر إليها مبتسماً، لا أعرف ماذا أقول لِعدَم أهمية ذلك؟. أتذكّر وصفها لهما بالشواحن، فأمازِحُها قائلاً:

- ربما لن يكون هذا في صالحك.

تقهقه، تتناول موبايلها، وتتصل:

- صباح الخير.

كيفك؟ وكيف الأولاد؟

أنا منيحة. لكن، انتهى ما لديّ مِن العسل والزبدة.

يكفي، تمام.

لا، لا داعٍ. أنا أمرّ عليك مساءً، وآخذهما.

مع السلامة.

الله معك.

تقفل الخط، وتضع موبايلها جانباً. تنظر إليّ كأمّ صارمة تخاطب ابنِها المقصّر، وتقول ضاحكة:

- هكذا، لن تكون لك أيّة حجة.

أقهقه، وأقول لها مِن خلال قهقهتي:

– حاضر، سأفعل كلّ ما تريدين.

تنظر إليّ متصنّعةً اللامبالاة، وتقول:

– أنا لا أريد أيّ شيء.

أغمزها مبتسماً، وأقول لها بحنيّة:

– تعالي.

ترفع حاجبيها، وتكوّر شفتيها، وتقول:

– اطْصُؤْ.

أقف متحفّزاً ، تقف متحفّزة، أخطو باتجاهها. تخطو مبتعدة عني إلى رأس الطاولة. أركض، تركض، أقف مكانها على رأس الطاولة. تقف متكئة على كرسيّي، أركض إليها، تركض باتجاه المطبخ، أتابع الركض خلفها، أجدها مستندة على طرف المجلى مبتسمة بشقاوة، ورافعة ذراعيها إلى أعلى علامة استسلام. ألصق رجليّ برجليها وبطني ببطنها وصدري بصدرها ووجهي بوجهها وذراعيّ بذراعيها المرفوعتين. تلحس شفتيّ، ألحس شفتيها. ألتقطهما بشفتيّ، ونتركهما يتعاركان حتى نكاد نختنق من تبادل أنفاسنا المعطرة برائحة الزيت والبيض والثوم والنعنع والزبدة والعسل. أخفض ذراعيها إلى جانبيها، وأدخل رأسي تحت بلوزتها، أمرّغ وجهي بثدييها أقبلهما وألحسهما

وأمصّ حلمتيهما، تخلع بلوزتها بينما أفكّ أزرار بنطالها، أنزله إلى أسفل قدميها، وأعريها منه، أخلع كيلوتي وتخلع كيلوتها، أحضنها، وأدخل قضيبي في فرجها، وأدقّه، أدقّه، أدقّه، وثدياها يرتطمان بصدري ووجهها ضائع مِن اللذّة. تدفع صدري بأصابعها لأخرج منها. تدور وتمسك بطرف الغرانيت وتحني ظهرها إلى أن تشعر بقضيبي يلامس أسفل مؤخرتها، تمسكه وتدخله في فتحة مهبلها، وتهمس:

– دقّه على مهلك.

أدفع حوضي ببطء وأحرّكه جيئة وذهاباً بحركة منتظمة، يخفّ البلل في مهبلها، فأشعر بلذّة أكبر باحتكاك قضيبي داخله، لكن سرعان ما تتصاعد أصواتنا مبتهجة بوصولها إلى ذروة المنتهى، فأدفعه بلطف إلى آخره وأقذف منيّي متأوّهاً مِن أعماقي . أديرُ صوفي إليّ، أقبّلها. تبتسم وتقبلني.

نخرج من الحمام منتعشين. نفكّ منشفتينا عن جسدينا، ونلقيهما على كرسي المرآة في غرفة النوم. نستلقي على التخت عاريين. تلامس قدمها قدمي، فترتجفان. أرفع قدَمِيَ وأمرّر أصابعها على ركبتيها وساقيها وأحكّ بها قدَميها. وأعيدها لتسترخي في مكانها. تسألني:

– ما رأيك أن نشرب الشاي؟

- نشرب الشاي.

- غليتُ الماء، لكن لم ألقمه.

أنهض، وأنا أقول لها:

- سأبدل الماء.

- ألبس، وألحقك.

أرتدي كيلوتاً، وأمشي إلى المطبخ، أرفع كيلوتي وثياب صوفي، وأضعها على الكرسي قرْبَ باب الشقة. وأعود لأجهّز الشاي. أبدل ماء الإبريق، وأشعل تحته الغاز. أنزل كوبَين مِن الخزانة وأضعهما على غرانيت المَجلى. أرى صوفي واقفة على باب المطبخ ترتدي بلوزة حفر وشورتاً قصيراً تتفرج عليّ مُبتسِمة سعيدة. أشير إلى الثياب خلفها. تضحك مسرورة باهتمامي. تدور وتأخذ كيلوتي إلى الحمّام. وتعود لتضعَ ثيابها في الغسّالة. ألقمُ الإبريقَ بالشاي. أدعه يغلي قليلاً، وأطفئ تحته. تأتي صوفي حاملة غطاء التخت مطوياً، تُدخله في الغسالة، تُغلِق بابها، وتكبس زرَّ تشغيلها. تساعدني في وضع الكوبَين وإبريقِ الشاي على الصينية. أحملها إلى الصالون، وأضعها على الطاولة الصغيرة. وأجلس على الصوفا. تأتي صُوفي حاملة طَبَق التين، وتضعه أمامي. وتجلس إلى جانبي. أحضن كتفها، أشمّ شعرَها، وأقبّله. أتركها تسكب الشاي، وألتهي بأكل بعض

حبات مِن التين.

تناولني كوبَ الشاي، آخذ رشفة منه، وأضعه على الطاولة. تفتح صوفي علبة الدخان، تخرج سيجارة، وتشعلها. تشرب رشفة مِن كوبِها، وتدخّن. أضع طبق التين أمامها. تلتقط حبّة، تأكلها، وتسألني:

- هل سمعت بشجرة غير شجرة التفاح يمكن أن تكون هي الشجرة التي أغوَتْ حواءُ بها آدم.

- لا.

- هل تظنّ أنّ شجرة التين يمكن أن تكون هذه الشجرة؟

- ليس لديّ أية فكرة. ما أعلمه بدقّة أن هذه الشجرة مهما كان نوعها هي ترمز للمعرفة.

- أعلم ذلك.

تأكل حبّة تين ثانية، وتسألني:

- هل كانت حوّاء عذراء؟

أضحك، وأقول لها:

- أيضاً، لا أعرف. أعلم أنّ هناك مَن يعتقد أنّ النساء في الجنّة عذراوات، ويبقين عذراوات مهما مارسْنَ مِن الجنس.

- أيضاً، أعلم ذلك.

تأكل حبّة تين ثالثة، وتسألني:

– لماذا الرجال يفضلّون الزواج مِن امرأة عذراء؟

أحتار من دوافع أسئلتها ومقاصِدِها، فأجيب عن نفسي:

– لستُ واحداً منهم.

تبتسم، وتأكل حبّة تين رابعة، وتقول:

– أعلم ذلك، ولكنْ أسأل بشكل عام؟

أفطن إلى أنها مستمتعة بأكلِ حبات التين، وتتلفظ بما يخطر على بالها مِن أفكار لتتسلى معي. أقهقه. فتعرف أنّني اكتشفت لُعبَتها. تضحك، وتتابع التِهامَ عددٍ مِن حبات التين مستمتعة،

صامتة. تأخذ رشفة مِن فنجان الشاي، وتقول كأنما لنفسِها:

– عالم معقّد، ولذلك هو تافه.

أشعر بأنّ خواطرها التي لم تصرّح بها، كانت تتعلّق بمعاناتها مِن فقدان عذريتها، فأسألها:

– ماذا كان موقف عائلتك مِن فقدان عذريّتك؟

تضحك بلا مبالاة على غير ما أتوقّع، وتقول:

– المشكلة ليست في والديّ.

– كيف؟

لا تبدو أنها تنتظر سؤالاً منّي، لتخبرني عن شيء أريد معرفته بقدر

ماهي بحاجة إلى أن تفضفض لي، لتعرّفني أكثر وأكثر على ما يشغل بالها، ولتعرف ما هي مواقفي منه. ألاحظ ذلك، فأتركها تسترسل في كلامها:

– هما تعارفا في ألمانيا، وتزوجا هناك، وعادل ولد فيها. بل حينها لم أشعر أنّني بحاجة لأن أخبر أحداً، فقد شرحتْ لي أمّي سابقاً عن الدورة الدموية، وعن غشاء البكارة. لكن بعد ذلك بعامين، وكنت في البكالوريا، أراد تاجر كبير، صديق لوالدي ويتعالج عنده، أن يزوجني لابنه. لم يكن والداي موافقان مِن حيث المبدأ فما زلتُ صغيرة، وينبغي أن أكمل دراستي، وأنضج، وأختار زوجي بنفسي. لكنْ خَطَرَ لهما أنّني يمكن أن أكون على علاقة مع الشاب بسبب الزيارات المُتبادَلة بين العائلتين، ومِن حقِّي أن أعرف طلب والده، ويستطلعان رأيي في الأمر ويناقشانه معي. المهم عقدَ أبي جلسة مسائية، لم يحضرها عادل بسبب تواجده في ألمانيا. أخبرني أبي بما عنده، فقلتُ له: لا أفكّر حالياً بالزواج، فأنا صغيرة كما قلت، ولم أنضج لمثل هذه الأمور بَعْد. وأصلاً هذا الشاب محافظ، ولا يناسبني. فسألني على سبيل الدعابة: لأسباب سياسية يعني؟. فقلت له بجديّة: لا، لأسباب جنسية. ضحك، وقال: هل تشرحين لي هذه الأسباب؟. فشرحتُ له ما حَصَلَ معي. نظر إليّ بلوم في البداية، ثمّ لم أعرف،

حينها، لماذا، قرص خدّي بِرِقّة، وغادر الجلسة مقهقهاً، وهو يقول لأمي: عليكِ بها. وقفت أمّي، فوقفت. أخذتني بحضنها، وقالت لي باسمة، احذري مِن هؤلاء الشباب حولك، فمُعظَمهم محافظون. وحين سألتها حزينة محتارة: ماذا أفعل؟. ضحكت، وقالت: لا تنسي أن تضعي واقياً ذكرياً في حقيبتك حين تحبين شاباً يعجبك. ضحكتُ لامبالية، وقلت لها: لن أحبّ الآن أحداً، أريد أن أنجح في البكالوريا. وتركتها تلحق بوالدي مطمئنّة عليّ، وأنا ذهبتُ إلى غرفتي، لأتابع تحضيري للامتحان.

مع أنّ عَينَيَّ طفرتا بدمعتين مِن شدّة تأثّري بِجَمال والديٍّ صُوفي وتحضرهما على الرغم من الواقع القاسي الذي نعيش فيه، أضحك، وأسأل صُوفي على سبيل المداعبة:

– ولكنّك لم تأخذي بنصيحةِ والدتِك على الأقلّ معي؟

تنظر إليّ بأسى، وتسألني بجدية:

– حقاً، هل أحتاج لذلك؟ وهل هذا ما يُدمِع عينيك؟

أقدّر موقفها في هذه اللحظة، واضطرابِ نفسيتها، ليس بسبب ما حكته لي، وإنما لأسباب أخرى تخطر على بالها، ولا تقولها، فأضطر لأن أشرح لها:

– أولاً أنا أدمَعَتْ عيناي فرحاً بردّة فعل والديك. ثانياً أنا معتاد على

المزاح معك، ولم يخطر على بالي أنّ شيئاً هناك يمكن أن يزعجك مِن مزاحي.

تبتسم متفهّمةً، تحضنني، وتقبلني، وتقول ضاحكة:

- استخدمت الواقي الذكري مرة واحدة مع زميل لي في الدراسة الجامعية، لكنه لم يمتعني بالمقدار الذي كنت أستمتع فيه أثناء العادة السرية.

- وماذا جرى بعد ذلك؟

- طلبت منه الزواج فَرَفَضَ كما توقعت، وانتهت علاقتنا بلا كلام وبلا سلام.

أضحك، وأقول لها:

- معنى هذا صرتِ تتحكمين بعلاقاتكِ مع الشباب بلا عقَد وبلا خوف.

- هذا لو كنتُ لا أرغب بعلاقة حبّ كاملة تنتهي بالزواج.

- آسف، ربما أسأتُ التعبير.

- لا داعٍ للأسف، فأنت لم تكن معي لتعرف كيف كنتُ أفكّر، وأسلك.

- المهمّ!

- أعجب بي شاب فنان تشكيلي يكبرني بسنتين بعد تخرّجي مِن

الجامعة، تعارفْنا في إحدى المناسبات الكثيرة التي كنت أحضرها بدعوة مِن صديقاتي. وجدته مثقفاً ومتحرراً فرَاقَ لي على الرغم مِن أنه رافض لفكرة الزواج مِن أساسها. وجَدَني لا أستمتع معه أثناء ممارسة الجنس، فسألني عن السبب فشرحتُ له. طلب مني التوقّف عن ممارسة العادة السرية، وألا ألتقي به إلا حين أشتهيه. وشيئاً فشيئاً وجدتُ نفسي أنفر مِن العادة، وأمتّع نفسي به مثلما يستمتع بي، وربما أكثر. لكن بعد ذلك بحوالي سنة ، عرفت أنّ الأستاذ يقيم علاقة مع امرأة أخرى، وحين صارحتُه لم ينكر، وقال لي: من غير الطبيعي ألا تملّي من جسدي مثلما بدأت أملّ مِن جسدك.

- ماذا كانت ردّة فعلك.

- لا شيء. فأنا قطعتُ علاقتي سابقاً مع زميل لي لنفس السبب، وإنْ بشكل مناقِض.

- صحيح، أخبرتني بذلك قبل قليل.

تضحك مرحة، وتقول:

- ما زلتُ أحترم علاقتي بإياد، وأذكر فَضْلَه عليّ، وإنْ لم أعد أطيق رؤياه، لا هو، ولا لوحاته.

- هو فهمت لماذا؟ أما لوحاته؟

- لا يرسم سوى الظلال الملونة، لا يهتم بأن يصوّر أيّ شيء.

– فهمتُ أيضاً، لكن معك حقّ بالنسبة للرسم فقط.

تضحك بثقة، وتقول:

– أنا دائماً الحقّ معي.

أضحك، وأقول:

– حتى الآن ما عندي اعتراض على كلامك، سوى كلامك عن إياد فهو لم يسئ إليك.

– ألم تمل مِن كلامي؟

– لا. أنا أحبّك أن تتكلمي.

تبتسم راضية، وتقول:

– في الحقيقة لم أقطع علاقتي بإياد. لم أجد سبباً مقنعاً لذلك، لكن لم أعد أزوره وحيدة، أو بالأحرى رغبة بممارسة الجنس. صار صديقاً مقرباً، وأبدي له الود والاحترام أينما رأيته. حتى أنّني سألته عن خالد قبل أن أقبل بعلاقتي معه، باعتباره صديقه المقرّب، فأخبرني أنّه مثله لا يفكّر بالزواج، لكنه ناقد محترم، صادق، ويحبّ النساء ويحاول ألا يسيء إليهنّ. أعجبني خالد أكثر من إياد لسعة تفكيره، وتقبله للرأي الآخر. حتى أنه لم يكن يزعل حين أسخر مِن لوحات إياد ويحاول أن يشرح لي طبيعة الفن التجريدي، وحين أقول له إنّ ما يرسمه مُتداوَل ولا جديد فيه حتى في المدرسة التجريدية،

يضحك ويقول مغلوباً على أمره: لا يمكن أن يكون جميع الفنانين عباقرة، وأصحاب مدارس خاصة بهم. فأصمتُ غير راضية وأغيّر الحديث.

- من حيث المبدأ أنا لا أختلف عن الاثنين في علاقتي مع النساء.

تضحك، وتقول:

- حتى عادل قال لي نفس الشيء. وأوضح لي أنهما متفقان على تبادل النساء كما يبدو، وعليّ أن أفكّر بما أريده بجدية، ولا أقيم علاقات غير راضية عنها، ولا أستطيع تحمّل مسؤوليتها بنفسي.

- ما المشكلة إذاً؟

- في موقفنا مما يحصل في سوريا.

- كيف؟

- جلسنا مرّة نحن الثلاثة في أحد مقاهي دمشق القديمة. وحاولا إقناعي بالانضمام إليهما بالخروج من سوريا والالتحاق بالمعارضة الخارجية. سألتهما أيّة معارضة؟ قالا: هذه التي تقاتل النظام. أجبتهما: هذه معارضة دينية إرهابية ولا تقبل حتى بكما. بَدَآ يشرحان أنّهما سينضمان لمعارضة موازية، للدعم السياسي والإعلامي في أوربا، ولن يذهبا للقتال. وبعد نقاش مضنٍ، لا أذكر لماذا سألتهما: هل تريدانني أن أمارس جهاد النكاح؟ ضحكا وقالا: أنت تصلحين

لذلك. لا أعرف كيف غادرت المقهى، ولم أستطع التخلص مِن ضحكهما حتى الآن. حتى أنّني حين أتذكّر وجهيهما الملتحيين أرى ملامح ابن لادن والبغدادي بدل ملامح والت ويتمان وكارل ماركس التي كنت أراها فيهما.

أضحك، وأقول لها:

- الآن أستطيع القول: معك كلّ الحقّ، ولا يستحقان حتى أن تتذكريهما.

- ولهذا جئت إلى هنا.

- من حسن حظّي.

تضحك. وتنظر إليّ تحاول أن تتأكّد مِن تعابير وجهي صدْقَ ما أقول. أبتسم لها، وأقول لأخفّف عنها:

- حَصل معي الشيء نفسه تقريباً.

تضحك، وتسألني:

- كيف؟

- لم يكن المناخ في سوريا، وليس الآن، مناسباً لشاعر وناقد مثلي، وكنت أنشر أشياء في سوريا على سبيل تشجيع الذات، ولم يحدث مرّة أنّ الرقابة لم تحذف منها شيئاً. وإذا كان هذا حالي مع الرقابة السورية، فما بالك سيكون الحال مع الرقابة الخليجية حيث يتمركز

ثِقَلُ الثقافة العربية الآن؟.

- أصعب بكثير.

- المهمّ، تعرّفتُ على مُعارِضين سوريين عن طريق الفيس بوك كتبوا أشياء مبدعة حقيقةً. ومن خلالهم استطعتُ أن أخرق الحصار المفروض على نشر ما أكتبه بسبب استقلاليتي، لا أكثر. بدأت أتعرّض لمضايقات معنوية مِن المُوالين. لم أبال بها باعتبار ما أكتبُه يتعلّق بنشر قيم العلمانية والديمقراطية، وهذا شيء يتعارض مِن حيث المبدأ مع المتأسلمين الذين تحاربهم الدولة. أخذت المضايقات شكلاً آخر لم أكن أفهمه في البداية. كيف أشرح ذلك؟ حاول الموالون إفهامي بطريقة أو بأخرى وصلتْ إلى حدّ الإشارات المُبهَمة والتطيّر أنّ كل هؤلاء المعارضين الذين أكتب عن أعمالهم وحتى الجرائد والمجلات التي تنشر مُسيطَر عليها مِن قِبَلِهم. أيضاً لم أبالِ، فأنا أدافع عن الإبداع وقِيَمِه وليس عن جهة سياسية محدّدة. وربما بسبب سكْري الدائم لم أستطع السيطرة على الأشياء كما أريد. وما كنتُ سأبالي بكلّ الضغوطات لولا أنّ هؤلاء المعارضين أخذوا ينشرون أشياء مؤيدة للمعارضة الدينية، ويلمّحُون للقبول بحكمها مبدئياً، مما جَعلني أفقد السيطرة على أيّ شيء، وصارت تختلط عليّ الأشياء، مما اضطرَّني أخيراً إلى ازعاج جميع هؤلاء

المُعارِضين المُنافِقين لأتخلّص منهم، ومِن الضغوطات التي أعيشها بسببهم.

– لذلك تنشر أعمالك في تونس؟.

– تونس فيها إرث علماني عظيم، ومقدار مِن حرية التعبير لا تتمتع به أية دولة عربية أخرى. لكن للأسف، تبقى أعمالي هناك، وأنا هنا، وقليل من القراء يعرفونها في سوريا.

– ربما لو تجرّب في لبنان.

– لبنان سوق للجميع علمانيين ودينيين، وأنا لا أستطيع أن أدفع، لا مالاً ولا نفاقاً.

– معك حقّ، هذا هو واقع الحال.

أضحك، وأقول:

– واقع الحال أنّنا ثرثرنا كثيراً اليوم.

تضحك غنجة، وتقول:

– ولكنها ثرثرة جميلة.

أهزّ رأسي موافقاً، وأسألها:

– أين ليتر الويسكي الذي وعدتِ به؟.

– ما رأيك بالبيرة؟

أنظر إليها مبتسماً، و مُوافِقاً، تقبّلني على شَعري، وتنهض لتجلبها.

أشعل سيجارة، وأفكّر بصُوفي، وأقول لنفسي كم هي جميلة ونقية. وأتساءل: هل هو الحظ أم الفرز الذي جمعني بصُوفي؟. وأقول حاسماً: هو الفرز بالتأكيد. فرْز للذات أمام نفسها، وفرز للآخرين أمامها. صوفي لم تتعب كثيراً للوصول إليّ، عبرت ثلاثة رجال فقط، بينما أنا تحملت مشاقّ عشرات النساء للوصول إليها. أهزّ رأسي وأقول: قد تبدو علاقتي بصوفي سهلة وبسيطة لكلينا، لكننا تعذبنا كثيراً في حلّ العديد مِن العقَد مِن أجل الوصول إليها.

تعود صوفي حاملة صينية البيرة، نشطةً، فرحة، متحرّرة مِن جميع أوجاعها. تنظر إليّ، مشيرة إلى الطاولة لأفرغها. أسارع إلى وضع كوبَي الشاي والإبريق على الصينية أمامي، وأحملها، تضع صوفي البيرة على الطاولة، فأنهض وآخذ صينية الشاي إلى المطبخ. وأعود لأجلس إلى جانبها على الصوفا. لم تكن قد سكبت البيرة في الكأسين بعد، فأسألها:

- ما رأيك أن نشرب من الزجاجة مباشرة؟

تبتسم، وتقول:

- لمَ لا؟

ترفع إحدى الزجاجتين أمامي، أرفع الزجاجة الأخرى ونقرعهما ضاحكين. ترى صوفي طبَق التين لم يزل على الطاولة، ويحتوي

على حبتين تناولني حبّة آكلها، وتأكل الثانية. نشرب من زجاجتَي البيرة على مهلنا حتى تفرغا. نشعر بارتخاء لذيذ. فنذهب إلى التخت، نستلقي عليه، ونغفو.

نستيقظ حوالي الساعة السادسة مساءً. تضع صوفي ركوة القهوة على الغاز، وتطلب منّي إخراج منشرَي الغسيل المتحرّكَين ونصبهما على رصيف الحديقة. أراها تُخرج الملابسَ مِن باب الغسالة، وترتبها على جاط بلاستيكي، أنتظر حتى تنتهي، أحمل الجاط، وأوصله إلى جانبي المنشَرَين. أترك صوفي تنشر الغسيل عليهما، وأذهب لأكمل غَلْيَ القهوة.

أضع فنجانَي القهوة على طاولة الطعام، أجلب الدخان والمنفضة، وأجلس على كرسيِّي المعتاد أمام نافذة الحديقة، أشرب القهوة وأدخّن. وأنظر إلى خُفوت ضوء النهار، ومغادرته تدريجياً لنا. تجيء صوفي، وتجلس قبالتي، فرحة بتخلّصها مِن نشْر الغسيل. تُشعل سيجارة، وتأخذ رشفة مِن فنجانها، وتسألني:

- ماذا سنأكل اليوم؟.

- أيّ شيء.

- ما رأيك بالمعكرونة؟.

أنظر إليها مستغرباً، وأقول:

- لكن، لا أراك تأكلين الجبنة.

- آها، تحبّ المعكرونة بالجبنة؟

- وهل تؤكل المعكرونة من غير جبنة؟

تضحك، وتقول مجاملة:

- طبعاً، لا.

- طيّب، ما الحلّ؟

- سأطبخها بالجبنة.

- لكن أنا لا أريد أن تأكلي شيئاً لا تحبينه.

- ومَن قال لك إنّني لا أحبّ الجبنة؟ كلّ ما في الأمر أنّني كنت أضحّي بها مِن أجلك.

أضحك، وأقول لها عابثاً:

- وهذا ما أودّ أن تفعليه مع المعكرونة.

تقهقه، وتشير إليّ بسبابتها، وتقول:

- أنت واحد أناني، وثرثار فظيع.

أتصنّع الزعل، وأقول:

- الله يسامحك.

تبتسم مغتاظة، وتقول بِوَعِيدٍ مُبَطَّن:

- طيّب، طيّب، أستاذ غلاظة. ذاهبة لأحضّر نفسي، لنخرج ونجلب

لك، أو لماذا لك؟. لنجلب لنا – نحن الاثنين – الشواحن.

أضحك، ولا أقول شيئاً. أشرب مِن فنجان قهوتي مُستمتعاً، وأدخّن مرتاحاً مِن التفكير بأيّ شيء. تدخل صوفي تُعانقني مِن الخلف، وتقبلني على خدي، وتقول لي:

– اذهبْ لترتدي ثيابك.

أقف، وأنظر إلى فستانها، فيُبهرني لونُه البرتقالي المحمرّ، تلاحظ ذلك، فتدور أمامي، أضحك فرحاً بفرحها، وأقول:

– روعة. جمال على جمال.

يُعجبني الفستان حقيقة، فهو بطول فستانها الأصفر وبموديله، مع اختلاف بسيط أنّه مقصوص على الصدر نصْفَ دائرة مِن الكتف إلى الكتف مروراً بأعلى ثدييها المُثيرين. أنحني على صدرها، فتتركني أقبّلها في ملتقى ثدييها، وأذهب لأرتدي ثيابي، ونخرج.

تستقبلنا نسائمُ المساء اللطيفة، نصعد رصيفَ الدكاكين، لا تبدو صُوفي مكترثة بنظرات الإعجاب كما في اليومين السابقين، لكن لا يمنعها ذلك مِن تبادل بعض الابتسامات ولاسيما مع الصبايا الصغيرات المُعجَبات بفستانها. ندخل دُكان الخضار، يستقبلنا البائع بلا انفعال، يرحب بنا بمودة، وهو يسترق بعض النظرات إلى صدر صوفي، بِحَذَر ومِن غير تعليق أو إشارة. نشتري ظرْف معكرونة،

وقطرميزَيَّ فطر وذرة وقالب جبنة قشقوان، وعلبتَي دخان، وأسألها:

– هل لدينا جبنة للفطور؟

تبتسم، وتهزّ رأسها بالنفي، أخرِج مِن براد الدكان على سبيل الخدمة الذاتية كيساً يتسع لنصف كيلو مِن الجبنة المشللة، وأدفع ثمنه للبائع، ونذهب لنجلب الزبدة والعسل.

يقع بيت أم غادة قُبالة البنايات التي تشكل واجهة حارة صوفي على الشارع المتجه إلى القرى. تقرع صوفي جرَساً صغيراً مثبتاً على الجدار لصق الباب مِن الأعلى، نسمع خطوات سريعة على ساحة البيت المكشوفة. تفتح أم غادة الباب وترحبّ بصوفي بحرارة، تنتبه إليّ، فتقول:

– أهلا بالأستاذ.

وتدعونا للدخول، فتعتذر صوفي متذرِّعةً بضيق الوقت. تُسرع أم غادة إلى الداخل، وتجلب كيسين يحتويان على الزبدة والعسل البلديين. تعطيها صوفي ثمنهما، ونعبر الشارع إلى الرصيف، ونعود على مهلنا إلى الشقّة.

نضع الأكياس في المطبخ على غرانيت المجلى، نذهب إلى غرفة النوم، أنا أشلح البنطال والبلوزة وأبقى بالكيلوت، وصوفي تشلح فستانها، وترتدي روباً رقيقاً شفافاً. أحضنها وأقبلها وأسألها:

– أين الويسكي؟

– ألا تنتظر إلى ما بعد العشاء؟.

– آخذ كأساً إلى أن يجهز.

– كما تودّ.

أجلس على طاولة الطعام، أشعل سيجارة، وأهجس: من الواضح لي أنّ ضغوطات الحديث مع صُوفي هو ما يجعلني ألحّ على شرب الخمور هذا اليوم. ولكن يترافق ذلك مع ارتياح وعدم مبالاة بأيّ أحَد مَن الموالين الفاسدين أو المعارضين الخونة. سأشرب لأنسى كلّ شيء مُزعِج، ولأستمتع بوقتي مع صوفي. أقول بوقتي لأنّ صُوفي ممتعة في كلّ شيء، ممتعة بجسدها الشهيّ، وممتعة في ممارسة الجنس، وممتعة بروحها النقية، وممتعة بتفكيرها النظيف، وممتعة بحديثها اللماح وانفعالاتها الطريفة، وممتعة بتفاصيل عَيشِها البسيطة، وحتى أنها ممتعة بطعامها وشرابها. ومع اقتراب صُوفي، أقول بصوت مسموع: وممتعة لأنها تجلب زجاجة الويسكي، وتضعها أمامي على الطاولة.

تعرف أنّني أهجس بها، وأتقصّد أن تَسمع آخِرَ ما خَطرَ على بالي، فتضحك، وتقول:

– الله يجيرنا مِن هذه الليلة.

تبدو ماركة هذه الزجاجة أليفة لديّ. شربتُ منها مرّة أو مرّتين لدى أحد زملائي الجامعيين الأثرياء. أفتحها، وأشمّ رائحتها، نافذة وعطرة برائحة الويسكي العريقة. أتأكّد من مكوناتها، يريحني أن يكون الشعير إحداها، تصل صوفي تضع كأساً مملوء بالثلج أمامي، وهي تقول منبهة:

- كأس واحد فقط.

- حاضر.

تنتبه لفظاظتها غير المقصودة، وتقول بغنج على سبيل الاعتذار والإغواء:

- ظننتك تحبّ أن تشرب معي.

- أحبّ كلّ شيء معك.

تضحك ساخرة، وتقول لتغيّر وجهة فظاظتها:

- إلا أن تكون معي في المطبخ.

أضحك، وأسكب الويسكي في الكأس إلى حافته. أنحني عليه وآخذ رشفة سريعة كيلا ينكبّ على الطاولة، فأتوه في مذاقه. أشعل سيجارة، وأحني رأسي على الكأس ثانية، وآخذ رشفة أكبر من الأولى وأدفعها إلى حلقي. يستوي الويسكي في الكأس على ارتفاع مناسب لرفعه بيدي، فأستوي في جلستي. هذه هي الحياة هناك مَن ينحني

لها لكيلا تتبدّد على الرغم مِن بهلوانية ذلك، وهناك من يستوي معها لكي تُبدي جَمالها وتَوازنَها، وما هو مهمّ أن تبقى الحياة موجودة لأنّ حركتها لا تقتصر على ما قلته، لأنّ حركتها لا تنتهي.

أرفع كأس الويسكي، وآخذ رشفة كبيرة، أمضمضها في فمي، وأبلعها ليتسع نطاق نكهتها ولذعتها إلى حنكيّ وأنفي. أفكّر بحركة الحياة، وألوم كارل ماركس على تقسيم الناس إلى طبقات اقتصادية لا تفكّر الطبقة العليا سوى بامتلاك أدوات الإنتاج والفائض الربحي من المال بينما الطبقة السفلى لا تفكّر إلا بتأمين كفافها من الطعام والشراب. وتبقى الحياة التي خلقت لنعيشها بحرية وجمال خارج نطاق التفكير العام.

أتعب من التفكير، وآخذ رشفة مِن الويسكي مستمتعاً بمذاقه وتأثيره المهدّئ لتشنجات جسدي. أشعل سيجارة ثانية، ويبدأ الجوع يُغالبني. أكرع كأس الويسكي كلّه، لعلّه يصدّ جوعي قليلاً. أدخّن، أسمع صوفي تناديني. أطفئ السيجارة، وأسارع إليها، تبتسم وتشير إلى طبق المعكرونة أحمله، وتحمل صحنين ومعلقتين، ونمشي إلى الصالون. أضع الطبَق وسط طاولة الطعام، وتضع صوفي صحناً ومعلقة أمامي وصحناً ومعلقة أمام كرسيّها، تجلس، وتسألني:

– ما رأيك؟

- معكرونة فاخرة، تسلم يداك.

- بَرَشْتُ قالب الجبنة كلّه.

- المهم أن تستمتعي أنت أيضاً بها.

- أستمتع بكلّ شيء معك

- يمتعني ذلك.

نضحك مرحين من عبارات المجاملة التي نتبادلها، مع أنّها صادقة، وتعبّر حقيقة عن واقع حالنا وما نشعر به. تملأ صحنها بالمغرفة المغروسة في طبق المعكرونة، وتناولني المغرفة، لأملأ صحني. نتبادل نظرات الشغف، ونأكل صامِتَين متلذّذين بفائض الجبنة والفطر والذرة، وما أضافته مِن ثوم وقليل مِن دبس الفليفلة الحدّة.

ننتهي مِن الطعام بعد أن أفرغنا المعكرونة كلّها في فمَينا الشرِهَين. أرتّب الصحنين والملعقتين فوق الطبق بحيث أستطيع وضع كأس الويسكي معهما، وأحمل الطبق بحذر إلى المطبخ. تلحق بي صوفي لتُخْرِجَ قالبَي ثلج وتفرغهما في السطل المعدني، تختار قدَحَين صغيرَين، تُرتبهما مع السطل على صينية صغيرة، أحملها، وأسبقها لأضعها على طاولة الطعام.

اليوم الخامس

أفتح عيني على صوفي عارية تماماً، تحاول تعريتي مِن كيلوتي. أبتسم وأغمض عينيّ بسرعة كيلا تعرف أنّني فقت. أحرّك مؤخرتي ورجلي وفقاً لحركة يديها لتستطيع أن تسحب الكيلوت مَن قدميّ. تتكئ على كوعها، وتتأمّل قضيبي، تدغدغني متعة خفيفة مِن تمرير أصابعها عليه. تنحني تلحس خشفته، وتمصها بشفتيها، يتمدّد رويداً، وأكاد لا أتمالك أعصابي مِن اللذّة. تمسكه بإصبعيها وتضعه في فمها تُراقصه بلسانها، ينتصب شيئاً فشيئاً، وأنا أكتم تأوّهاتي. تدخله في فمها وتخرجه، وهي تداعب فرجها حتى تتأكّد مِن بلله، تتكئ على ركبتها وتنقل رجلها الثانية إلى الجانب الآخر مِن جسدي، بحيث يكون نصفي الأسفل متمدّداً أمامها، والأعلى مستلقياً خلفها. تنهض على ركبتيها فوق بطني، تقرّب فرجها مِن قضيبي وتدخله فينزلق في فرجها. أتقصّد التأوّه بصوت مرتفع، فتنظر إليّ متوجّسة. أبتسم لها، وأمسك خصرها، وأدفع قضيبي داخلها. تطمئنّ لتجاوبي معها، ورضاي بما تفعله. تعلو وتهبط فوقي وأنا انظر إلى شعرها يتمايل على كتفيها وظهرها كأنها فرساً يعدو.. آه آه، آخ آخ، آه آخ،

يعلو صهيلها وصراخي، أقذف داخلها. أسحب رجليّ، وأنزل عن التخت. تتمدّد على ظهرها وتنظر إليّ مبتسمة، مُعجَبة. فأقول لها مداعباً:

- صباح الخير، يا مهرة.

تضحك سعيدة بتشبيهي، وتقول:

- صباح الشعراء الفرسان كلهم.

آخذ منشفة، وأذهب إلى الحمّام. تتبعني صوفي بمنشفتَيها، نتناوب على كرسي المرحاض، نتحمّم، ونخرج ضاحِكَين. أرتدي كيلوتي، وترتدي كيلوتها وروباً خفيفاً. ونمشي إلى المطبخ. تأخذ سلّة بلاستيكية لِلَمّ الغسيل، وأضع ركوة القهوة على الغاز. تناديني لآخذ الغسيل إلى غرفة النوم، وأضعه أمام الخزانة، بينما تتولّى تحضير القهوة.

نشرب القهوة وندخّن. نتبادل ابتسامات الاسترخاء، ونظرات النعاس. نضحك مُتكاسِلَين. نمشي إلى غرفة النوم. نستلقي على التخت، ونغفو.

أفيق على صوفي ترتّب الغسيل في الخزانة، أتفرّج عليها كيف تطوي أغطية التخت وتضعها في درفة الرفوف الأخيرة، وفي الدرفة التي قبلها ترتّب البلوزات والشورتات، بينما تعلّق الفساتين مكانها في

الدرفة الأولى. تلحظ استيقاظي، وتفرّجي عليها. تتنهّد ضَجِرة مما تفعله، وتقول:

– أنا جعت.

أسألها كنوع مِن التخفيف عنها:

– هل أقطف النعنع؟

تبتسم، وتجيبني:

– طبعاً، ولا تنسَ أن تُدخِلَ منشرَيَّ الغسيل.

أنزل عن التخت، وأنا أمشي خارجاً أسألها:

– ستقلين البيض بالزبدة اليوم؟.

ترفع صوتها ضاحكة بعد أن وصلت إلى الصالون:

– وستأكل الجبنة والعسل.

أضحك فرحاً، وأتابع طريقي إلى المطبخ. إضافة إلى قصّ النعنع، أساعد صوفي بتقشير البصل، وأمازحها ببعض القُبَل واللحْمَسات على ثدييها ومؤخرتها. نضع الفطور على طاولة الطعام، نأكل صامتَين، مُستمتِعَين كالعادة، لكن مِن غير أن تنسى أن تنفّذ وعيدَها، فتُشاركني ببعض اللقم مِن صحنَي العسل والجبنة.

حين ننتهي مِن تناول الفطور، تسألني:

– ما رأيك أن نشرب كوكتيل فواكه بدَلَ الشاي؟

أتذكّر أوّل يوم التقيتُها فيه، ولا أدري لماذا أسألها مُبتسماً :

– ألم تخمّ الفواكه التي اشتريتها أم كنت تأكلينها وأنا نائم؟

تقهقه مِن سُخف ما أقول، وتُجاريني بالقول:

– لا لم تخمّ، ألا يكفي أنّك كنت تلهيني عنها؟

أضحك مستسلماً، وأقول:

– بهذه معك حقّ.

أضع الصحون على الطبَق، وآخذها إلى المطبخ. أعود، وأجلس إلى طاولة الطعام، أشعل سيجارة، أدخّن إلى أن تجيء صوفي بكوكتيل الفواكه. أشرب الكوبَ الذي وضعَتْه أمامي متلذّذاً بنكهات التفاح والموز والدراق. لا أعرف لماذا يخطر لي أن أطلّ على شقّتي؟، يُشجعني على ذلك أنّ صُوفي تُبدي رضاها لأنها ستستدعي منظفة البيوت، لتشطِفَ لها الشقة وتمسح الجدران والأثاث بينما هي ستذهب إلى الكوافير. وتخبرني بأنها، حينما ينتهيان، ستتلفن لي.

لأوّل مرّة بعد ثلاثة أيام أخرج مِن شقّة صُوفي وحيداً. لكن، أشعر أنّ صوفي معي بروائحها وطعومها داخل أنفي وفمي. أشعر أنّني أتعرّق بها بينما أمشي مسرعاً، وأجتاز الأمكنة التي اعتدْتُها، وشعور بالمودة والألفة يلامسانها مِن نظراتي واحتكاكي العابر بها. بل أشعر بفيء الأشجار وحتى الجدران يخصّني بلطافة مميزة مِن البرودة

والأنسام الطرية، ويزفّني لأدخل حارتي، وأصعد درجات البناية نشيطاً، مرحاً، وأفتح باب شقّتي، ولا شيء يشغل بالي سوى أن تُتلفِن لي صُوفي لأعود إليها ثانية.

أحسّ أنّ الهواء مخنوق في الشقّة، أسارِع إلى فتح جميع النوافذ، أضع ركوة القهوة على الغاز، وأشعل الراوتر واللابتوب. أتعرى مِن بلوزتي وبنطالي، وأبقى بالكيلوت. أضع كوب القهوة بجانب علبة الدخان والمنفضة، وأفتح الفيس بوك، لا أجد إشعارات مهمة، أتنقّل بين صفحات الأصدقاء الذين تهمني أخبارهم، وأسخو باللايكات على غير عادتي، أغيّر حالتي الاجتماعية مِن وحيد إلى مخطوب، أغلِق الفيس بوك. أذكر كوب القهوة، آخذ رشفة منه، وأشعِلُ سيجارة. أفتح البريد الالكتروني، أفاجأ برسالة مِن رئيس تحرير إحدى المجلات العربية التي كنت أنشر فيها، وتوقفت عن الكتابة فيها لأنه تجاهَلَ نَشْرَ دراستي عن أحد التشكيليين السوريين المُهمين بسبب خلافي مع صديقه الناقد هنا على الفيس في ليلة من ليالي سكْري. أفتح الرسالة يقترح فيها أن أكتب له شيئاً عن الأحوال في سوريا. لم أرِدْ رفْض طلبِ رئيس التحرير بسبب ما نشَره لي بطريقة محترمة مِن جهة. ومِن جهة أخرى أنا بحاجة للمال الذي تمنحه المجلة مقابل الكتابة لديها. فهي تكاد المجلة العربية الوحيدة التي لا

تمتنع عن إرسال مستحقاتي مِن المال بحجّة الحصار المفروض على سوريا كما فعلتْ معي عدّة دوريات عربية أخرى.

أغلق البريدَ الالكتروني. أتذكّر حديثي مع صوفي عن علاقاتي بالكتّاب المعارِضين. ولولا أنّني لم أتجاوز مرحلة التطيّر لشككتُ بتوقيت هذه الرسالة اليوم على الرغم مِن كلّ الثقة التي مَنَحَتني صُوفي إياها بعْد فقداني لهذه الثقة مِن أقرب الناس إليّ. أمسح دمعة طويلة وصلَتْ إلى فمي. أفتح صفحة بيضاء جديدة على اللابتوب، وآخذ بالكتابة:

1)

مع أنّ اقتراح كتابة شيء عن الحالة السورية لهذه المجلة الفريدة مِن نوعها في العالم العربي، أبكاني ببساطة، ربما لا لحزنٍ، وإنما لمفاجأة ضوءٍ باهر لعينين اعتادتا على العتمة؛ أو ربما لغمضة عينيّ على السنوات السبع الخراب التي عَصَفتْ بوطني، ولم تزلْ؛ لولا أنّ العواطف ما لم تكن مرتكزةً على وعيٍ يمنحها بُعداً جمالياً، قد لا تقول شيئاً سوى انعكاس الانفعال. وهذا الانفعال لا شكّ أنه يعبّر عن ألمٍ في هذه الحالة، وهو متقاسَم مِن جميع السوريين، لكن يبقى السؤال أين موطن الجرح الذي يصدر عنه؟.

وأن يبدو هذا الجرح سياسياً لمعظم السوريين، غير أنّي لم أكن متورطاً في السياسة بشكل مباشر في أيّ يومٍ مِن الأيام. لقد أفشلتُ دائماً كلّ المحاولات التي رغبتْ بتنظيمي في أيّ حزب، بما فيها الحزب الحاكم، ربما لوعيي المبكّر بتفردّي كشاعر، يحمل وطنه على كتفيه، وربما، وهذا هو الأرجح لرعونة مزاجي، وعدم مقدرتي على التكيّف مع أيّ أمْرٍ يرغب التحكّم بي. بهذا المعنى لم أكن أفكّر بطبيعة النظام السياسي أو ماهيّة السلطة الحاكمة بقدر تفكيري بحياتي بين الناس ومقدار انفتاح هؤلاء الناس على العالم المتحضر الذي يحترم الفنون و الآداب، ومباهجَ الحياة ومتعها مع أنها غير متوفرة لي بسبب أحوالي المالية وحسب.

بسبب أحوالي المالية اضطررت أواخر عام 2010 أن أتخذ قرار الانتقال مِن مدينة منشئي دمشق إلى مدينة اللاذقية حيث أتمكن مِن شراء بيت بقرْض مِن البنك العقاري. تدبّرت نقل عملي إلى اللاذقية، وسكنتُ بمنزل العائلة في قرية بعيدة عن مركز المدينة حوالي أربعين كيلومتراً. وربما كانت هذه السنة من أجمل سنيّ حياتي، ومن يقرأ نصي "مكاشفات الجبل الأخضر" سوف يعرف لماذا؟ – كأن يكون لي طريق بين الأشجار و الغيوم أو النسيم إلى العمل لمدة ساعتين ذهاباً و إياباً يومياً بدل طريق بين الجدران و الدخان أو الغبار

مثلاً!.

2

بداية عام 2011 بدأت امتدادات الربيع العربي تصل إلى سوريا، ولم أكن أتوقّع بسبب الانفتاح على الرأي الآخر، و تحسّن المعيشة النسبي، أن تتسع إلى حدّ المظاهرات الحاشدة التي رأيتُها في مدينة حماة مطالِبةً بإسقاط النظام؛ أو في مدينة حمص، وكانت تضمّ مختلف الطيْف السوري بطوائفه وأعراقه، مطالِبةً بعزْلِ المحافظ. فانتهَت بعزْل هذا الطيف و تشتتيه إلى فصائل مسلحة تُقاتِل بعضها بعضاً. لقد حصل ذلك، على ما أذكر، بعد زيارة سفيرَي دولتين غربيتين عظميين إلى كلتا المدينتين والالتقاء بالمتظاهِرين؛ ولا أفترض، هنا، ولا أرفض أية رواية عن سبب تسليح السوريين، لكن لم يكن صوتي كافياً، على ما يبدو، لرفْض هذا التسليح، أو تحييد القتال بعيداً عن منازل الناس وقراهم ومدنهم!.

كانت علاقتي بالمظاهرات والحرب الدائرة تقتصر على التلفاز، والانترنت، ولاسيما الفيس بوك. وحدَثَ أن ذهبتُ إلى وسط مدينة

اللاذقية، إلى الشارع المحاذي لساحة الشيخ ضاهر، على الرغم مِن تحذير سائق التكسي لي بأنّ هناك مظاهرة في الساحة. وحين نزلتُ من التكسي راعني ما رأيتُ مِن مَظاهِر الاستنفار على وجوه الرجال و الشبان الذين يملؤون جميع الأزقة التي تفضي إلى مكان التظاهر. هل هُم فائض بشري ضاق عليه مكانُ المظاهرة أم هُم رجال أمن يرصدون كلّ مَن يرغب بالتظاهر هناك، سألتُ نفسي؟. وما أرعبَني أكثر أنّني لا أستطيع أن أمنع أية رصاصة قنْص يمكن أن تستقرّ في رأسي مِن أيّة جهة مكانية، مُعارِضة أو مُوالية، ولا سيما أنّ رسائل التهديد الواضحة أو المشفّرة كانت تأتيني من جميع الأطراف المُتخاصِمة ،لأنّني لم أستطع أن أتخذ أيّ موقف حاسم مع أو ضدّ أيٍّ منها.

3

وصلت الحرب إلى مسقط رأسي في القابون، إحدى قرى الغوطة الغربية التي تحوّلت تدريجياً سنة بعد أخرى من سنيّ عمري إلى أحد أحياء دمشق التي استبدلت أشجارها بجدرانها. كان سكّان القابون القرويون متأثرين بالثقافة الأيوبية والعثمانية المحافِظة؛ وربما كان

لبناء المصانع مِن جهة الشرق والجنوب، ولِبناء أكاديمية الشرطة، والثكنة العسكرية مِن جهة الشمال والغرب، دور في تغيير لباس الرجال حتى لا يبدَوا أقلّ وسامة مِن العمال والعساكر أمامَ نسائهم كما يخيّل إليّ. أما النساء فبقيْنَ يرتدينَ ملحفةً بيضاء مُنقطّة تغطي أجسادهنّ مِن أعلى الرؤوس إلى أسفل الأقدام، فلا أرى حتى عيونَهنّ بسبب انكسارِها نحو الأرض؛ إلى حين مرور جيلَين بعد ولادتي حيث بدأت الصبايا المتعلمات يرتدين المعطفَ الشرعي وفوقه منديلٌ يُخفي الشَّعر، ويُظهر الوجه كاملاً. بل كانت دهشتي كبيرة أن أدخل إحدى الصيدليات، مفتِّشاً عن دواء لم يكن متوفّراً بكثرة، لأرى جارتي القابونية في أيام الطفولة قد أصبحت صيدلانية. بينما كثير مِن شباب القابون أصبحوا أطباء ومهندسين ومدرِّسين وضباطاً في الجيش وأبطالاً عالميين في الملاكمة والمصارعة. وإذا لم يكنْ، فقد ورثوا تجارة أو حرْفة ومصنعاً، حتى أنّ أحد زملاء دراستي بعد أن صار ضابطاً يعمل في مدينة طرطوس الساحلية كان يضطر أيام الإجازة إلى البحث عن عمل يوميّ كعتال مع ورشة بناء أو أيّ شيء يشبه ذلك، لأنّ راتبه لم يكن يكفي عائلته الصغيرة. فخيّره والده بين شيئين: إما أن يصرف عليه وعلى زوجته وابنتِه ويتأنق بين الناس ضابطاً محترَماً؛ أو يترك

الجيش ليفتح له سوبر ماركت يُديره؛ واختار الأمر الثاني كما رأيتُ واشتريت منه. هؤلاء هُم أهل القابون لم يكونوا ليتورّطوا في حرب تدمّر ما بنوه لمستقبلهم ومستقبل أولادهم، والأمر كله كان بِيَدِ الوافدين مِن الشمال السوري، والأشقاء العرب الذين شاهدتُ ارتكاسات أحوالهم عن المدنية، ولا يخلو الأمر مِن المتبطلين القابونيين الذين يريدون الحصولَ على المال بلا عمل أُسوةً بالفاسدين مِن النظام. أذكر ذلك لأفهم التطهيرَ العِرْقي الذي جرى ضدّ أهل الساحل في القابون بعد أشهر قليلة مِن الاحتجاجات، ولحسْنِ الحظّ أنّ ذلك كان صَيفاً، ووالداي العجوزان كانا برفقتِي في القرية. وكان مسلَّماً لنا أنهما لن يعودا إلى القابون، تاركين بيتنا المتواضع ومحتوياته لِمَن يرغب بهما.

4

كان الردّ الحاسم على دعواتي لإبعاد القتال عن القُرى والمدن أنّ المعارضة إنما "تحرّر" سوريا من "احتلال" النظام، وكان أوّل شيء لفتَ نظَري هنا في ريف اللاذقية الشمالي أنّ عوائل المسلحين وأقرباءهم كانوا السباقين في الهروب مِن هذا "التحرير" باتجاه المدينة ليحتموا بالنظام. وكان ثاني شيء أنّ النظام لم يكن بالقوّة الكافية ليحمي حتى القرى المُوالية له. وثالث شيء أنّ النظام لم يستسلم

لاختراع المعارضة لمدفع جهنم، فاخترَعَ البراميلَ المتفجرّة التي لم تستطعْ حمايتنا مِن غزوة جهة النصرة الشهيرة.

كنت واقفاً على الشرفة مع اقتراب الغروب حين مرّ ذلك الرجل السبعيني أمام بيتنا المطل على شارع القرية الرئيسي مباشرة، ومع أنّني لم أكن أستلطفه منذ وجودنا في دمشق لحشريته وفظاظته إلا أنني كنت أبدي له الاحترام كُرْمى لعلاقته الطيبة بوالدي. ولا أدري لماذا ألححت عليه بالدخول حينها على غير عادتي؟ ربما لكي يؤنِسَ والدي في وحشته وغربته بعد أن كان له في القابون ودمشق كثيرٌ مِن المريدين، وكنتُ قد استنفدت طاقتي كلها في مجاملته ونقاشه فيما أخالفه في أمور الدين والدنيا، لا لأقنعه بشيء، وهو الرجل المُتعَب والمُتقاعِد من عمله نساجاً في الشركة الخماسية، وقد شارف على الثمانين مِن عمره، وإنما ليتركني وشأني فيما أكتبه وأفكّر به.

غروب ذلك اليوم وصلت أولى رصاصات التحرير إلى كفرية، مرّت فوق رأسي وسقطت في الوادي أمامي. وشاع نبأ ذبح ذلك الرجل السبعيني في القرية مِن قِبَلِ المسلحين الذين اتخذوا مِن شِمالها ممراً سرياً للعبور بين مدينتَي الحفة و سلمى. وحسب رواية الشاب المرافق له أنّ رجل القرية هو مَن استوقَفَ المسلَّحين لكي يقنعهم

بخطئهم، فسخروا منه، وحين اشتدّ الشجار تكاثروا عليه بينما لاذ الشاب بالفرار. وربما أميل إلى تصديق هذه الرواية لأنّ رجلاً مِن دير ماما – قرية ممدوح عدوان – التابعة لمحافظة حماة، وهُوَ مِن مُريدي والدي، ويشبه رجل قريتنا شكلاً ومزاجاً، لم يصدّق ما يحدث في القابون، وأصرّ على الذهاب إلى الفرْن الذي يشكّل جزءاً مِن مَبنى الجامع الكبير مَعقل المظاهرات، لشراء الخبز، فتمّ اختطافه مِن قِبَلِ المسلَّحين، ولم يتمّ تحريره إلا بعد اختطاف رَجُلَين مِن أهالي القابون مِن قِبَلِ أولاده.

لم نستطع الهروبَ مِن كفرية في تلك الليلة المُرعِبة كما فَعَلَ مُعظم الأهالي، وانتظرنا إلى اليوم التالي مِن أجل الاستقرار في شقتي غير المفروشة حينها سوى بتجهيزات المطبخ والحمّام وما جلبناه معنا مِن فرْش وأغطية، أنا ووالداي وإحدى شقيقاتي. بقي حالنا على هذا النحو عدّة أشهر إلى حين تجهيز شقة شقيقتي التي اشترَتها بقرْضٍ عقاري هي الأخرى. فاصطحبتْ والدي للعيش معها بينما بقيتْ أمّي معي، ربما لأنها تتبارك بي في مقاومة مَرَض السرطان الذي تُحاربه منذ خمسة عشر عاماً، واستسلمتْ له قبل عدّة أشهر، تاركةً عينَيّ تنزفان على وفاتها إلى أن جفّ الدمع فيهما.

أتذكّر الآن كيف تبخرّ حلمي يوماً بعد يوم و أسبوعاً بعد أسبوع

وسنةً بعد سنة بمتعة العيش في هذه المدينة الجميلة؟ ليس بسبب الحرب وحدَها، وإنما بسبب أحوالي المالية التي تضاءلت مِن أربعمئة دولار في الشهر إلى أقلّ مِن مئة دولار، بينما تضاعفت تكاليف المعيشة الأساسية أكثر مِن عشرة أضعاف: كيلو الطماطم أو الخيار كان بخمس وعشرين ليرة والآن بمئتين وخمسين ليرة؛ كيلو الملح كان بخمس ليرات والآن بخمسين ليرة؛ أفضل قميص أو حذاء مِن صناعة سورية كان بألف ليرة والآن بأكثر من عشرة آلاف ليرة؛ حتى علبة المتة كانت بخمس وثلاثين ليرة والآن بثلاثمئة وخمسين ليرة؛ نصيّة العرَق الجيدة كانت بخمسٍ وسبعين ليرة والآن بألف ليرة.. وهكذا. ومع ذلك حين نتساءل نحن أصحاب المرتبات المحدودة عن أحوالنا نعزّي أنفسنا بأننا أحسن حالاً مِن الطرف الأخر!.. أيّ طرَف؟ مِن المؤكّد لسنا أحسن حالاً مِن المجاهدين وعائلاتهم، ولا من المُعارضين الذين يعيشون في أوربا والخليج وعائلاتهم، ولا مِن معفّشي النظام وعائلاتهم بطبيعة الحال؛ ربما نحن أحسن حالاً مِن السوريين الذين يعيشون في مخيمات الدول العربية المجاورة مع فارق أنّني لا أتلقّى أيّة مساعدات أممية أو محلية.

على الرغم من الخفّة المقصودة في كلّ ما ذكرتُه، تخفّفاً مِن جميع مظاهر العنف التي عُرِضَت على الشاشات المتنوعة، ولا يمكن حصوله إلا بغيابٍ كامل للعقل: إنه يضع السكين على عنق إنسان ويذبحه، كيف يمكن لأهل هذا الذابح أن يأمنوا جانِبَه فيما بَعْد؟. لا أستطيع تخيُّل ذلك.. لا أستطيع تخيُّل حجم الدمار الهائل للعمران!. إنّني على قناعة بخلو معظم الأبنية التي تمّ تدميرها مِن سكانها، وإلا مِن أين جاء كلّ هؤلاء المهاجرين إليكم؟. إنّني أسمع صرخات الأبنية ذاتها؛ صرخات الاسمنت المسلح، وهو يفقد شكله الإنساني، أو بتوصيف أدقّ، وهو يفقد شكله المحايث للإنسان.. ما الذي يدفعني إلى هذا الشعور الغريب في فظاعته؟ ولماذا أحاول التعبير عنه؟ هل لأنّ البيت أو الكوخ رمز للأم حسب غاستون باشلار، وأنا مشرّد أبديّ وبحاجة للالتجاء؟ أم أنّ الأمر لا يتعدّى تأثير مشهدٍ غرائبي لم أعتد على رؤيته. لقد قرأتُ أنّ عباقرة مهندسي العمارة يجدون في الحروب والزلازل فرصاً نادرة لتحقيق طموحاتهم الإبداعية، حين قرأت ذلك لم أستهجن حالهم، ربما لم أعد أنظر إلى فنّ العمارة بهذه الأهمية؛ فقد أصِبْتُ بمرَض، وبحاجة إلى الشفاء

منه.

مرضي المرئيّ المُزمِن هو الكوابيس التي لم تفارقني منذ نعومة أظافري؛ وحتى الآن إذا لم أسكر تعاودني مِن جديد. مرّت فترة كنت أخرج فيها كلّ يوم، وأعود غالباً بنصية عَرَق لاستكمال سُكْري؛ لكن أحياناً كنت أذهب إلى الطرف الآخر، كانت القابون قرية وادعة، تتألّف مِن مجموعة مِن البيوت الطينية تتلاصق على ضفّتي نهر يزيد، هذه البيوت الترابية لم يصلها الدمار لأنها على الطرف الجنوبي الملاصق للمدينة؛ ومِن المؤكّد أنّني زرتُها بعد إحدى شطحات سُكْري، كانت تشبه حاراتٍ مرسومةً في لوحات تشكيلية، ولكنها أكثر جمالاً ونقاء لونياً، لقد تسلقتُ الجدران وعبرت الأسطحة ونزلت السلالم الخشبية كنت أشعر بسعادة غامرة، لكنّني استيقظت مذعوراً لأنّ أحداً لم يكن هناك.!

6

ما آسف له أنّني لا أعرف كيف سيُنهي أشقائي السوريون الحربَ فيما بينهم؟. كلّ ما أتمناه أن يمنحوا الفنون والآداب اهتماماً جاداً لأرى إنْ كان بإمكاني مواصلة الحياة بينهم. متع الحياة ومباهجها شيء ضروري، ويسعد الجميع؛ وهذا ما أبحث عنه منذ طفولتي، ولا أجده).

- كيف لم أجده؟

أسأل نفسي بصوت مرتفع متذكّراً ما أعيشه هذه الأيام مع صوفي. أعَنْوِنُ المقال: (نحن أفضل حالاً مِن الطرف الآخر)، أوقِّعُه باسمي. أفتح البريد الالكتروني، وأرسل ما كتبتُه إلى المجلة، وثمّة انقباض في داخلي يقول لي: لن تنشره. مع ذلك أغلِق البريد الالكتروني، واللابتوب، والراوتر، بشيء مِن الرضى. كأنّني أوضحتُ شيئاً ما كان ينبغي أن أوضحه. أما نشره فتتكفّل به الأيام في المجلة التي أرسلته إليها، أو في مكان آخر.

أقرّر الخروجَ مِن الشقّة لأتخفّف مِن ضغط ما كتبتُه. أرتدي قميصاً نظيفاً غير مُبالٍ بجعلكته المقبولة نسبياً بسبب طبيعة قماشه المكرنشة. أرتدي بنطالي الجينز. أغلق النوافذ. يرنّ الموبايل، أسارع إلى التقاطِه. أنظرُ إلى الشاشة، فأرى اسم صوفي كما توقّعتُ، ورغبْت. يأتيني صوتُها لأول مرة عبر الموبايل، غنجاً وهادئاً وسعيداً:

- مرحبا حبيبي.

- أهلا حبيبتي.

- نحنا خلصنا.

- طيب، أنا جاي. هل أجلب معي أيّ شيء.

- لا، فقط، استعجِلْ.

- مسافة الطريق.

- باي.

- باي.

أرتدي حذائي، وأخرج.

أقف على بابِ شقة صوفي، وأتصل بها، تُغلِق الاتصال بسرعة، وتفتَح الباب. تُعانقني ضاحكةً، وتقبّلني على شفتي، وتتشمّمني كأنّني ابنها العائد بعد طول غياب. أنظر إلى شَعرِها، أطمئنّ عليه، لم يزل كما هو، فأقول لها:

- مبروك القَصّة الجديدة. حلوة جداً، ولاسيما أنكِ لم تقصّريه.

تضحك فرحة، وتقول:

- أنا أيضاً أحبّ تسريحة الشلال. أذهب إلى الكوافير لقصِّ الزوائد، وهندمة الحواجب فقط.

أنظر إلى عينيها الخضراوين تلمعان كنجمتَين قريبتَين تحت هِلالَين ساطِعَين. أحضنها، وأقبِّل شفتيها، وأمسك يدَها، وندخل إلى الصالون. تنتبه إلى جعلكة قميصي، تضحك، وتسألني:

- كأنك لا تعرف أن تكوي؟

- صحيح.

- طيب، حين نخرج سأكويه لك.

أشعر بحرارةِ جسدي ترتفع، فأخلَع ثيابي، وأذهب إلى غرفة النوم، وأعلقهما إلى جانب فساتين صوفي غير عابئ بالفارق الطبقي بينهما. أعود لأرى صُوفي قد وضعَتْ كوبَين مِن كوكتيل الفواكه على الطاولة الصغيرة، وتجلس على الصوفا ببلوزتها الحمراء وشورتِها الكحلي. أجلس إلى جانبها، وآخذ رشفة مِن الكوب، أستمتِع ببرودتِه ونكهاته التي تذوّقتُها في الصباح. ترفَع صُوفي كوبَها، تشرب منه، وتقول:

- الكوكتيل البارد أطيَب. لذلك قبل أن أذهبَ إلى الكوافير عَصَرْتُ ما تبقّى مِن فواكه ووضعتُه في البراد لِنشرَبه الآن.

- فعْلاً طيّب، تسلم يداك.

- تسلم لي.

أضحك فرحاً، ولا أعرف ماذا أقول؟. فمع أنّ عبارتها الأخيرة تبدو لي مبتذَلة لِكَثْرَةِ ما سمعتُها مِن النساء بمناسبة ومِن دُونها إلا أنها تروق لي مِن فم صُوفي، وتعني لي حقاً. وعلى أية حال لا تتركني صوفي مِن غير أن تلمّح على الأقلّ لِمَعناها، فتسألني:

- لديك تجارب زواج مِن قَبْل؟.

- تجربتان.

- وهل لديكَ أولاد؟

- لا.

- هل أُحْرِجُكَ بالسؤال عن السبب؟

- الأولى طرحت. والثانية لا تُنجِب.

تبتسم سعيدة، وتقول لي:

- ألا تفكّر أن تتزوجني؟

- لا.

تسألني حزينة:

- لماذا؟

- لأن هذا ليس في صالِحِك.

- كيف؟

- أنتِ الآن تعيشين برعاية عائلتك، ويوفرون لك كلّ شيء بينما أنا راتبي بالكاد يكفيني لِثَمَنِ الدخان وقليل من الطعام والشراب. هذا إذا لم أقارِن بين هذه الشقة وشقتي.

- هل هذا هو السبب فقط.

- حقاً، ليس عندي سبب آخر.

تبتسم راضية، وتسألني أيضاً حول ذات الموضوع:

- ألا تحبّ أن تُنجِب ولداً أو بنتاً؟

أضحك محرجاً، وأجيبُها:

- طبعاً، لا، وقبل أن تسألي سأجيبك لماذا؟ لأنّ إنجاب الولد يحتاج إلى أموال أكثر مِن الزواج، وهي غير متوفرة لديّ حتى الآن. والولد مسؤولية كبيرة، وسيأكل حياتي كلها لأنّني لا أستطيع أن أتحمّل حزنه. غير ذلك لا أشعر حقيقة بالحاجة لأن أكون أباً لأيّ سبب مِن الأسباب، وأعرف أنّ هذا الشيء غير طبيعي، وربما يكون مرضاً نفسياً.

تبتسم بثقة كأنها تتقدّم بنجاح إلى ما تريد الوصول إليه، وتقول:

- وإذا قلتُ لك: إنّني أقبل الزواج منكَ مِن غير أن نسكن معاً.

- لا مانع لديّ.

تضحك فرحة، وتقول:

- وإذا حملتُ، وأنجبْتُ ولداً.

أقهقه، وأقول:

- وإذا.

تنظر إليّ بجدية، وتقول:

- لم أفهم.

ألملِمُ نفسي، وأشرح لها:

- هنا المشكلة. إذا أنجبت ولداً، ستتحملين مسؤولية تربيته وحدك،

على الأغلب.

تبتسم منشرحة، وتقول:

- فهمت.

تخطر لي علاقاتها السابقة، فأسالها لأشرحَ موقِفيَ بشكل أوضح إذا كان يحتاج لذلك، ولأفهم أكثر كيف تفكّر بهذه الأمور:

- هل كنتِ تفكرين بالحمْل أثناء علاقاتك السابقة؟

- ليس كثيراً. وكنا غالباً نحتاط لذلك. لكن لو حَصَلَ كان لديّ خيار مضمون لحياة جنيني.

- ما هو؟

- أن أذهب إلى ألمانيا، وألِدُ هناك، وأسجِّل ابني على اسمي.

يُقنعني جوابها، ويحرّرني مِن أية مسؤولية تجاهها، فأقول لها بابتسامة مؤيدة:

- تفكير سليم.

تحضنني، وتقبلني، وتقول لي مطمئنة:

- لا ينبغي أن تقلق مِن حديثي.

- مُطلَقاً. أنا فقط قلِقٌ عليكِ.

- حبيبي.

تقبّلني على شفتي، وتقف وتمشي إلى غرفة النوم، وهي تقول:

- سأكوي لكَ قميصَك.

لا أعلّق، ولا يخطر على بالي أن أسألها إلى أين سنخرج؟ فقد استولت عليّ رغبتُها بالزواج منّي، وأن يكون لنا ولداً أو بنتاً. ومِن حيث المبدأ لم أجد مانعاً مُقنِعاً يمكن أن يقف عائقاً أمام ذلك، طالَما هي تترك لي حرية الاختيار في العيش مستقلاً كما أنا؛ وطالما أنها مستعدة لتربية مولودِنا إذا ما جاء لوحدِها. غير أنّ السؤال الذي يلحّ عليّ الآن: هل كانت صُوفي تلقي شباكها لي، ووقعتُ فيها بسهولة؟ وإذا كان الأمر كذلك هل يتناسب هذا الفعْل مع قِيَم الحرية عندي وأخلاقيّتها على الأقلّ؟ في الواقع أرى كل شيء حدث في وقته المناسب، وكما قلتُ سابقاً كلّ شيء في علاقتنا فرزَته مصادفات الضرورة. وحتى نظرياً على اعتبار أنها كانت تصطادني، فلا تبدو شباكها مؤذية، ولا تتوخّى منها فَرْضَ سلْطة أو سيطرة. وحسب ما أعرف وأقول في تعريفي للأخلاق التي ترتبط بالحرية لديّ دائماً، فهي تنطلق في علاقتها معي مِن قِيَمٍ أخلاقية تماماً. فالقاعدة التي أتبناها تقول:" الأخلاق هي ألا تؤذي الآخر". وصُوفي لا تؤذيني في شيء؛ بل هي تفيدني، وتُسعدُني في كل شيء؛ بل هي تقترح عليّ شيئاً رائعاً لم يكن مُمكناً مِن دُونها. بعد التفكير بذلك يخطر لي أن أتساءل إن كنتُ أنطلق في علاقتي معها مِن قِيَم أخلاقية للحرية

بدوري؟ وأنّني لا أستغل فائضَ شهوتِها لأعيش على حسابِها؟ طبعاً، ليس الجنس والطعام والشراب ما أفكّر به، فهذا شيء مقدورٌ عليه، وله بدائل كثيرة، ما يُقلقني هُوَ ربْط مصيرها بمصيري، إذْ قد يكون بمُستطاعِها أن توفّر لنفسِها خياراً أفضل مِنّي. ولكنْ يبقى الخيار خيارها طالما تأتي إليه بإرادتها، ولا أحَد ينصب لها الشباك لتأتي إليه كأفضل المُمكِن. وحتى أتأكّد مِن ذلك ينبغي أن أتأكّد مِن أنها تحبّني. وما أشعرُ به، الآن، أنها تحبّني فعْلاً.

أفاجأ بها أمامي تنظر إليّ مبتسمة، حائرة في أمري، تضحك متعاطفة، وتسألني:

– متى تنتهي مِن هواجسك؟

– كيف؟

– إضافة إلى أنَّكَ لم تنتبه لوجودي، ندهتُ إليك مِن غرفة النوم، ولم تردّ عَلَيّ.

– ربما ندهْتِ بصوتٍ غيْر مسموع.

– دائماً، كنتَ تَسمعني.

– صُوفي، كنت أتساءل إن تحبينني لذاتي، ولست خياراً ظرْفياً. وهذا يقلقني لأنه ليس في صالحِكِ؟

– كنتُ أشتهيكَ في البداية. لكنْ مثلما أنت تهجس وتفكّر بسرعة،

أنا تتطور شهواتي ومشاعري وتقريري لِمَصيري بسرعة أكبر. أنا أحبّكَ. لأقُلْ هذا ما أشعر به اليوم. وأيّ شيء يتغَيَّر غداً يُمكن أن نتفاهم على حلّه.

- ماذا أقول لكِ؟ أنت تفتحين كلّ الأبواب أمامي.

- لأنها ذات الأبواب التي تفتحها أمامي.

- أتمنى ذلك.

- ما رأيك أن نتمشى، ونشتري شيئاً مِن الشواء؟

- هذا شيء لا يمكن رفضه.

نضحك معاً. نرتدي ملابسنا، ونخرج. ألاحظ أنّ صُوفي ترتدي شورْتَها السماويَّ الطويل وبلوزتها الصفراء، بل وحذاءً رياضياً، فالطريق إلى مطعم العجْل أقلّ ازدحاماً مِن رصيف حارتِها، وأطوَل، ويحتاج إلى عُبور الاوستراد. تُخبِرُني أنّها أرسلتْ صُورتي على الكورنيش الجنوبي إلى أمِّها عبر الواتس آب، وحدّثَتْها قليلاً عن علاقتنا. أسألها:

- ماذا قالت لكِ؟

- في البداية قالت لي: لا شيء فيه مُميَّز. هل خَلَتْ اللاذقية؟

- وماذا قلتِ حتى غيّرتِ رأيها؟

- صرْتُ أرسل لها قصائد مِن أشعارِك، حتى طلبَتْ التوقُّف عن

ذلك، مهدِّدةً بأنها ستترك والدي، وتأتي إلى هنا لتنافِسَني عليك.

أضحكُ، وأقول:

- منيح أنَّ هناك مَن لم يزَلْ يتذوّق الشِّعْرَ ويقدّره.

- حتى تعرف.

- صرتُ أعرف.

- بعد ذلك نصحتْنِي أن أتريّث في فكرةِ الزواج طالما ليس هناك حَمْل.

- أنا مِن رأيها.

- ما زلتُ أفكّر بالأمر.

- جيّد.

نصل إلى مطعم العجْل. يرحّب بنا البائع بطريقة مَرِحة:

- أهلاً بالحبايب.

صوفي تأتي إلى هنا أكثر منّي، لذلك تقدِّمُني له على أنّني خطيبها. يبتسم لنا بمودة أكبر، كأنما ليُفهِمَنا أنّ ما أثرناه مِن عَبَثٍ في المرة الماضية، لا أهمية له. تطلب منه صُوفي نصْفَ كيلو كباب سفاري. يُسارع إلى تحضيره وشَيِّهِ بينما نتمشى أمامَ المطعم ونراقب الداخلين والخارجين منه، ونتلذّذ بما يصلنا مَن روائح العَرَق. ينده لنا البائعُ، تسألني صُوفي إنْ كنتُ أرغبُ بمازة، فأهزّ رأسي بالنفي، وأذكِّرها

بأننا أكلنا كثيراً على الفطور، وشربْنا كوبين كبيرَين مِن كوكتيل الفواكه. أنظر إلى ما تبقى مِن مصاري في جيبي، لا أجدها تكفي، فأترك صُوفي تُحاسِب. مكتفياً بتقديم خدماتي بحمْلِ الشواء إلى الشقّة. مع وصولنا إلى بابها، تكون الشمس قد غابت تماماً. ندخل، وتقول لي صوفي أن أضعَ الشواءَ على طاولة الطعام. تسبقني إلى غرفة النوم وألحق بها لنتخفّف مِن ملابسنا. تذهب صُوفي إلى المطبخ، وأجلس إلى الطاولة. أضحك حين أرى صوفي تأتي بعدّة الويسكي أولاً، تضعُها على الطاولة باسِمَةً، ثم تعود لتأتي بِطَبَقين برفقة شوكتين وسكّينين. أسكب لها كأساً وأناولها إياه، وأسكب لي كأساً وأرفعه أمامها، تقرع كأسي بمرح، وتقول:

- بصحة زواجِنا.

أنظر إليها غير مُصدِّق، وأقول:

- بصحة زواجِنا.

نرشف مِن كأسَينا رشفتين كبيرَتَين، ونبدأ بالأكل، وكلما شعَرْنا بغصّة، نأخذ رشفة ويسكي إلى أن نقضي على الشواء والكأسين معاً. آخذ الطبقين وفوقهما الكيس وصحن الشواء الكرتوني وقشور البصل إلى المطبخ. حين أعودُ تُخبرني صُوفي أنّ أمّها أرسلتْ لها على الواتس آب تُخبرها بزيارة عادل إلى دمشق غداً مساءً قادماً مِن

بيروت، وتسألها إن كانت تستطيع القدوم للقائه وأخذ هداياها، لأنه سيرجِع صباحَ بَعْدَ غَدٍ إلى بيروت، وبعد أن يُنهي شغْلَه فيها سيعود إلى ألمانيا بسبب ارتباطِهِ بمواعيد عَمَل مهمّة. فأنصحها أن تحجزَ صباحاً منذ الآن. وأطلبُ مِن سائقي أن يكون في المكان الذي انتظرَنا فيه في حارتها أوَّل أمس حوالي الساعة التاسعة لكي يوصلنا غداً إلى الكراج.

تذهب صُوفي إلى تحضير حقيبة سفرها. فأسكب لنفسي كأساً وأشعِل سيجارة أتسلى بهما إلى أن تعود، وتجلس أمامي سعيدة، وقد اشرأبَّت حلمتا ثدييها مِن تحت روبها الشفّاف تبحثان عن فَمِي.

اللاذقية، آب – أوغسطس 2019

انتهى.



"نديم الوزة :روائي سوري من مواليد دمشق 1966 ويعيش حاليا في اللاذقية. أصدر حتى الآن عشرة كتب نقدية وشعرية بين دمشق وتونس. هذه روايته الأولى وكتابه الثالث الذي يصدر عن دار ديار . بعد كتابه النقدي "زلزلة الحداثة العربية.."
ومجموعته الشعرية "الطوفان"

سأشرب لأنسى كلّ شيء مُزعج. ولأستمتع بوقتي مع صوفي. أقول بوقتي لأنّ صوفي ممتعة في كلّ شيء، ممتعة بجسدها الشهي، وممتعة في ممارسة الجنس، وممتعة بروحها النقية، وممتعة بتفكيرها النظيف، وممتعة بحديثها اللماح وانفعالاتها الطريفة. وممتعة بتفاصيل عيشها البسيطة. وحتى أنها ممتعة بطعامها وشرابها. ومع اقتراب صوفي. أقول بصوت مسموع، وممتعة لأنها تجلب زجاجة الويسكي، وتضعها أمامي على الطاولة.

تعرف أنني أهجس بها. وأتقصد أن تسمع آخر ما خطر على بالي. فتضحك. وتقول:

- الله يجيرنا من هذه الليلة

الغلاف : رامي شعبو

الثمن : 20 دت